

دار العين للنشر
مدونة ابو عبدو
رولا عبيد
وداعًا أبو رمانة
رواية

55 79

وداعًا أبو رمانة

وداعًا أبو رمانة

رواية

رولا عبيد

الطبعة الأولى / ١٤٣٧هـ، ٢٠١٦م

حقوق الطبع محفوظة



دار العين للنشر

٤ ممر بهلر – قصر النيل – القاهرة

تليفون: ٢٣٩٦٢٤٧٥، فاكس: ٢٣٩٦٢٤٧٦

E-mail: elainpublishing@gmail.com

الهيئة الاستشارية للدار

أ.د. أحمد شوقي

أ. خالد فهمي

أ.د. فتح الله الشيخ

أ.د. فيصل يونس

أ.د. مصطفى إبراهيم فهمي

المدير العام

د. فاطمة البودي

الغلاف: غادة خليفة

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ٢٨٠١٩ /٢٠١٥

I.S.B.N 978 – 977 – 490 – 365 – 6

وداعًا أبو رمانة

رواية

رولا عبيد

دار العين للنشر



بطاقة فهرسة

فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشئون الفنية

عبيد، رولا

وداعا أبو رمانة: رواية/ رولا عبيد.

الإسكندرية: دار العين للنشر، ٢٠١٦

ص؛ سم.

تدمك: ٦ ٣٦٥ ٤٩٠ ٩٧٧ ٩٧٨

١- القصص العربية

أ- العنوان

٨١٣

رقم الإيداع / ٢٨٠١٩ / ٢٠١٥

إلى توأم روحي منير عبيد ...



الفصل الأول



1

دمشق – حي أبو رمانة 1971
ليلة رأس السنة

الفستان الوردي

استيقظت ديما ذات الستة أعوام على أصوات قهقهات عالية آتية من الصالة المجاورة لغرفة نومها. كان ضوء القمر يتسلل من شباك غرفتها ويضيء وجه كلبها الأزرق الحزين. وجهه هذا كان أكثر ما جذبها له عندما رأته للمرة الأولى عند بائع اللعب ومن يومها لا يفارقها.

عادت القهقهات لتصدح من جديد، لكن هذه المرة مع أصوات ارتطام مكعبات الثلج بالكؤوس. وفجأة علت الموسيقى وعمت حركة

غريبة في الصالة جعلت المنزل يرتج ارتجاجًا لم تعرف سببه. كان فضولها قد وصل حد النهاية. فنهضت من سريرها ومشت على أطراف أصابعها باتجاه الباب. شقته قليلًا وأخذت تتلصص منه. كان والداها وأصدقاؤهم رجالًا ونساء يمسكون بخصور بعضهم البعض على شكل قطار ويركضون في أرجاء المنزل وهم يصرخون توت.. توت... توت.... والبالونات تملأ الأرض والزينة الملتمعة التي تربط بين الثريات تتراقص على إيقاعهم. كانت تتأملهم باندهاش، لم تكن تعلم أن الكبار أيضًا يلعبون....

عند باب المطبخ تجلس صباح الخادمة وهي تسند رأسها على الباب شبه نائمة بانتظار أية أوامر من والديها. فتاة سمراء عيناها سوداوان وتربط رأسها بمنديل أخضر يتدلى منه شعرها الأسود الطويل. كانت في مثل عمر أختها شذا التي تكبرها ببضع سنوات. والتي تغط في نوم عميق الآن.

كانت صباح طفلة صغيرة عندما جلبوها معهم إلى المنزل من إحدى القرى في الساحل السوري بعد أن اتفق والد صباح مع والدها على مبلغ يقبضه منه أول كل سنة. ما إن وصلوا إلى المنزل يومها حتى أدخلتها والدتها إلى الحمام ونظفتها جيدًا وغسلت شعرها بالجاز ثم ألبستها شيئًا من ملابس أختها القديمة. في إحدى المرات سمعت والدتها تقول لصديقاتها إن صباح لم تكن تلبس تحت فستانها

ملابس داخلية "فستان رقيق مهري على اللحم بعز الشتاء يا حرام". وسمعت والدتها أيضًا تقول إنها في إحدى المرات وجدت حوض المطبخ عائمًا بالمواعين الوسخة وعندما سألت صباح لماذا لم تقم بغسلهم، وضعت صباح يديها على خصرها وأجابت بوقاحة "ما تقوم بنتك تغسلهن أحسن ماهي قاعدة".

نظـــرت إلى والدها وهو في طريقه إلـــى المطبخ متألقًا كعادته ببدلته وربطة عنقه. يشـــتري والدها ملابســـه دومًـــا من بيروت. يأخذهن بالســـيارة مرة أو مرتين في الشهر. في الصباح يخصص الوقت لهـــا ولأختيها فيذهبون إلى محل باتا لشـــراء الأحذية وفي الطريق يشـــتري لهن الكعكة بالزعتر وعلب التشـــيكلس المرسوم خلفها بالألوان خمســـة أبطال من قصص مغامرات الأســـتريكس المعروفة بـ (أستريكس بطل الأبطال) وأحيانًا تفوز بلعبة بلاستيكية صغيرة تجســـد أحد هؤلاء الأبطال. تركـــض على الكورنيش أمام والديهـــا وهي تنفخ بالونات الصابـــون فتطير في الفضاء ثم تذوب وتختفـــي فتلحقها ببالونات جديدة. في الظهيرة يذهبون جميعا لتلبية الدعـــوة على الغداء عند خالة والدتها (المغضوبة) كما تطلق عليها والدتها. لوالدتها خالتان وجههما (بيقطع الرزق من البيت) على حد قول والدتها. واحدة منهما المغضوبة، تعيش في بيروت مع زوجها التاجـــر وأولادها والأخرى تعيش في دمشـــق ولم تنجب الاثنتان. نزلت كل واحدة منهما على ضرة لتأخرهما في ســـن الزواج حيث

عملتا موظفتين في ســـنترال إحدى المؤسسات. وكل واحدة منهما عاشت حياتها (على حل شعرها) كما تقول والدتها. أما لماذا خالتها تلك مغضوبة؟ فقد ســـمعت والدتها في إحدى المرات تقول لإحدى صديقاتها إن خالتها كانت تطيل السهر خارج المنزل وعندما كانت أمها تحتضر كانت تسهر في كازينو المطار.

بعد الغداء تأخذ الخالة المغضوبة والديها إلى السوق بينما تجلس ديما وأختاها في المنزل مع أبنائها بانتظارهم. وريثما يعودون من السوق يصير فخذاها وفخذا أختها بلون أحمر ملتهب بسبب ابن الخالة الذي كان يجري وراءهما في أرجاء المنزل يقرصهما من أفخاذهن وهما تصرخان وتهربان منه. في منتصف الليل يحب والدها العودة لدمشق لتجنب الازدحام على الحدود خاصة عند نقطة الجمارك. أجمل غفوة لها تكون عادة في السيارة عندما تتمدد عند الشباك الخلفي وتغفو على صوت موتور السيارة بينما تتذمر أختاها منها بسبب ساقها التي تسقط من حين لآخر عليهما. لكن والديها لا يهتمان لتذمر أختيها منها فعندما يلقي ضابط الجمارك نظرة داخل السيارة ويراها غارقة في النوم يؤشر لوالدها بالمرور دون أن يفتش السيارة ويغرمه بعض المال على الملابس الجديدة وعلب الأكل المستورد وبسكويت 555 اللذيذ وشوكولا غندور بنكهة الفواكه.

مـــا أن يراها والدها وهي تتلصص من خلف الباب حتى يحملها ويدخـــل بها المطبخ ويطلب من صباح بعض الثلج للضيوف. على أكتافه تشـــعر بأنها ترى العالم من على برج عـــال لقلعة متينة لا يطالهـــا أحد. فوالدهـــا طويل وله كتفان عريضان. أســـمر اللون. وشعره أسود غزير وأملس وتتخلله بعض الشعيرات الفضية. وفي الإجـــازات عندمـــا يصطحبها معه إلى وظيفته، مـــا أن يراه عمو أبو محمد الســـاعي يدخل من باب المكتب حتـــى يهرول نحوهما وهو يحمل صينية القهوة ويقول "أمرني أســـتاذ" لا شك أنه يخاف من والدها. وبعد قليل يحضر لها كازوزة على برتقال وســـندويتش مرتديلا بالمخلل ويحملها ويجلسها على أحد المكاتب الخالية.

تشـــم رائحة كريهـــة من فم والدها وهو يتحـــدث. رائحة دخان مختلطة برائحة المشروب. تقفل فتحتي أنفها بإصبعيها الصغيرين وتنهض من جانبه وتذهب لتجلس على الكنبة بجانب والدتها.

يـــدق الباب فتركض لفتحه قبل أن تفتحـــه صباح وهي تمد لها لســـانها. يظهر أمامها جارهم أســـتاذ الفيزياء بروب المنزل البني الصوف وقبعة صوفية تغطي رأسه وبجانبه زوجته بروب المنزل الزهري اللون وشعرها ملفوف باللفافات ومغطى بشبكة. يشتكيان لوالدها من الضجيج.

بعـــد أن ينهي والدهـــا حديثه مع الجار يقفـــل الباب ويتجه إلى

المسجل وبأصابعه الطويلة الدقيقة يمسك بشريط البكرة ويدخله في مكانه ثم يلف البكرة لفة بسـيطة وتصدح موسـيقى أغنية أم كلثوم (الأطلال).

بعد قليل يدق الباب مرة أخرى ويستقبل والداها الجار وزوجته. زوجته ترتدي ملابس السهرة واللفافات لا تزال على رأسها. يقدم والدها كأس الويسكي للجار لكن نظرات زوجته الزاورة له تجعله يتردد ويمتنع.

تتأمل والدها وهو يضع ساقًا فوق ساق ويهزها هزات سريعة متتالية وهو يستمع للموسيقى. يفعلها دائمًا عندما يكون شديد السعادة أو شديد الغضب. لكنه اليوم بالتأكيد شديد السعادة. تنتقده والدتها عندما يفعل ذلك فتقول له "خلص عملتلي عصبي لسا بتهز رجلك متل ما الكلب بهز ذنبو" فيضحك ويعانقها.

والدها يحب والدتها حتى العبادة، هكذا سمعت عمة والدها تقول لإحدى جاراتها عندما كانت تبيت عندهم في إحدى المرات. وسمعت والدتها تقول لصديقاتها ساخرة "لما تزوجني كان عذراء".

"ماما شو يعني عذراء؟" سألتها يومها. لكن والدتها لم تجبها وطلبت منها ألا تتدخل بكلام الكبار.

لوالدتهـا عينـان لوزيتـان خضـراوان. وجههـا بيضاوي

ذو ملامح رقيقة حادة بعض الشيء. تغرز تاجًا ألماسيًا بشعرها البني المرفوع للأعلى فتظهر الشامة البنية خلف رقبتها الطويلة. فستانها من الشيفون الوردي وصدره مرصع بحجارة وردية وألماسية وخضراء. يكشف فستانها عن ذراعيها وساقيها المنسابتين برقة ورشاقة كأنهما لوحة لفنان خطها ككروكي بقلم الفحم ونسي أن يكملها.

تشم رائحتها الزكية فتقترب منها وتدس رأسها بين إبطها ووركها ثم تمد يدها وتلمس قماش الفستان المكون من عدة طبقات. ترفع كل الطبقات مرة واحدة فتطير بالهواء وينكشف فخذا والدتها الأبيضان الشمعيان فتضربها كفًا على يدها وتعيدها لغرفتها.

2

بوظة عربي بالفستق

اليوم الجمعة، لكن ذلك لا يمنع والدها من أن يصحو كعادته في الساعة الخامسة صباحًا مما يزعج والدتها. سمعتها أكثر من مرة تنتقده أمام صديقاتها وتقص عليهن كيف يصحو "قبل الشحادة وبنتها" وكيف يزقزق السرير وهو يخرج منه فتصحو هي على صوته. ثم يأتي صوت الدوش وبعد ذلك السشوار وأخيرًا رائحة عطره.

ومن عادة والدها أيضًا أن يرتدي ملابسه بالكامل وهو في المنزل حتى حذاءه. فهو يكره منظر المشاية المنزلية والبيجاما ولم يلبسهما في حياته. عندما يعود من وظيفته يخلع عنه بدلته ويبقى بملابسه الداخلية وجواربه وحذائه.

بعد أن يستمع والدها إلى الأخبار ويشرب القهوة، يذرع الصالة جيئة وذهابًا بعصبية وملل. فتصحو على وقع خطواته وهو يمر من أمام باب غرفتها نحو المطبخ وبالعكس.

كانت تعلم أن شجارًا قد دب بالأمس بين والديها. فبعد أن مضى الضيوف سمعت والدها يصرخ "كان لازم تسحبي إيدك منو وتوقفيه عند حدودو أنا ما بقدر قلو تروك إيد مرتي وبكفي تعص عليها"

ووالدتها تصرخ وتقول "والله ما عص على إيدي"

فيصرخ "عص ونص وقعد ساعة وهو ماسك إيدك"

فتصرخ والدتها "والله انت مجنون لازم تعد بالعصفورية"

فيجيبها والدها "ماشي أنا بورجيه المرة الجاية بدي عص على إيد مرتو متل ماعمل معك".

ترتدي ملابسها وتخرج معه إلى بقالية نورا. بقالية كبيرة فيها أنواع كثيرة من المرتديلات والأجبان والمشروبات الروحية والشوكولا. كانت تحب مرافقة والدها إليها فتركض أمامه على الرصيف وهي تدندن "لافاش كيري، لافاش كيري، جبنة البقرة الضاحكة لافاش كيري......" يقطعان الشارع الرئيسي نحوها وتقف عند بوابتها الكبيرة تتأمل رأس البقرة الضاحكة الكبير الذي يتدلى من أعلى البوابة بلونه الأحمر وعلبتي اللافاشكيري المعلقتين

في أذنيها. يحملهـــا والدها ويقربها منها حتى تلمســـها بيدها. تلك اللمســـة السحرية كانت سر مرافقتها لوالدها لبقالية نورا إلى جانب شوكولا كرانش التي تعشقها.

تعود هي ووالدها إلى المنزل محملين بالأكلات اللذيذة. يدخلان المنزل فيجدان والدتها ما تزال نائمة. وعندما يدخل والدها إلى الغرفة ليصالحها ويداعبها تسمع تذمرها وهي تقول له "تركني نام" فيتركها ويخرج من الغرفة وقد خاب أمله في إرضائها وباءت خطته بالفشل. يدخل إلى المطبخ ويبدأ بتحضير الفطور لهن وهو على يقين أنه لابد من عدة أيام للنكد كي تعود لها ابتسامتها بالتدريج.

عائلة والدها صغيرة. فبعد وفاة والده ووالدته لم يتبق له في دمشق إلا عمه وعمته. أما أخوه الوحيد فيعيش أغلب وقته خارج البلد بحكم عمله.

لعمه محل في ســـوق الحمدية لبيع وتصليح الســـاعات. استمد شـــهرته من صور عبـــد الناصر التي تملأ واجهـــة المحل. أرمل ولــــه ثلاثة أولاد. يعيش مع أخته التي رفضت الزواج بعدما تركها خطيبها وتزوج بأخرى. يوم زواجه دعت عليه وعلى عروسه من قلب محروق فاســـتجاب الله لدعائها وانقلبت بهما السيارة وتوفيا، هكذا يقال.

عندمـــا يصطحبها والدهـــا مع أختها الكبرى إلـــى محل عمه،

تركض ديما وتسبقهما إلى محل بكداش المواجه لمحل العم. تقف أمام الواجهة الزجاجية تتأمل صانع البوظة (الآيس كريم) وهو يمسك بالهاون الخشبي الكبير ويعلو ويهبط فوق البوظة بالقشطة وكلما زاد تعرقه ونفرت العروق من رقبته ووجهه طابت البوظة. وما أن تدخل محل العم حتى يزيل العدسة من على عينه ويلم القماشة البيضاء من على حجره بتأن كي لا تقع أجزاء الساعة المفكوكة الدقيقة منها، ثم ينهض للترحيب بهم. ويخرج من المحل ليوصي لهم على البوظة.

شديد الشبه بوالدها غير أن شعره قد أصبح فضيًا بالكامل. لجسده الرشيق لون برونزي فهو يهوى السباحة وصيد الأسماك. على ياقة قميصه يلتمع دبوس ذهبي لرأس عبد الناصر. والساعات المعروضة في الواجهة تحمل بداخلها صورة لعبد الناصر. حتى القهوة، يقدمها لزبائنه بفناجين عليها صورة عبد الناصر.

بعد أن يعود وقبل أن يدخل إلى مكانه ثانية، يقف أمام والدها وهو يمسح بيده على بطنه متباهيًا "شوف صرت فوق الستين ومافي عندي بطن، بسبح، ولما بصحى الصبح باخد دوش بارد، وبمشيها مشي من المهاجرين (أحد أحياء دمشق) لهون كل يوم"

فيما هي وأختها منهمكتان بأكل البوظة المتوجة بالفستق الحلبي، يخلع والدها ساعته من يده ويعطيها لعمه بناء على طلب الأخير

كي ينظفها ويلمعها له. يقلبها العم وهو يردد "ساعة روسية ممتازة" فيخبره والدها بأنه مل منها ويحتفظ بها فقط لأنها هدية من والده ريثما تتوقف عن العمل من تلقاء نفسها. لكنه يطمئنه "متينة كتير، عمرها طويل".

بعد أن يضع العدسة على عينه وينهمك في تنظيفها يبدأ بتذكر يوم وفاة عبد الناصر وكيف تلقى الخبر وكيف ذهب بنفسه إلى القاهرة وأدى واجب العزاء لعائلته. قصة سمعتها ديما من قبل عدة مرات لكن انهماكها في أكل البوظة اللذيذة كان يخفف من حالة الملل التي تشعر بها كلما قصها عليهم. في منتصف الحديث يختنق صوته وترتجف شفتاه فيزيل العدسة من على عينه ويتأمل صورة عبد الناصر الكبيرة المعلقة أمامه على الحائط ويمسح دموعه وينف أنفه وهو يردد "كان زعيم عظيم ما بيتكرر الله يرحمو".

3

سر صباح

شذا وديما وسلمى. تلك كانت أسماءهن وترتيبهن من الأكبر للأصغر (خير الأمور الوسط) لكنها كانت تكره الوسط وكانت هي الوسطى فهي تصغر أختها الكبرى بأربع سنوات وتكبر الصغرى بأربع سنوات أيضًا كما أنها متوسطة القامة، حنطية اللون.

بينما أختها الكبرى شذا طويلة وبيضاء (شق اللفت) على قولة الشوام عندما تمشي في الشارع مع والديها توقفهن النسوة ويسألن والدتها عنها "بنت مين هالحلوة؟ والله عم نخطب لأخي".

"ماعنا بنات للجواز" يرد والدها بعصبية ويمضي.

كانت تبدو أكبر من سنها، وجهها مدور يكسوه بعض النمش،

جبينها عريض وشعرها أشقر ناعم، وملامحها هادئة توحي بالسكينة حتى والدها كان يناديها بماما.

أما الصغرى سلمى فكانت سمراء غامقة عندما تراها النسوة من صديقات والدتها يشهقن "يوووه لمين طالعة بنتك سودا زرقا؟!"

"لأم أبوها الأفغانية" ترد والدتها بسخرية وهي تضحك.

تسأل سلمى والدها وقد كانت المحببة إلى قلبه ولا يغفو لها جفن إلا بحضنه وهي تلعب بخصل شعره "بابا ليش أنا سودا؟"

يضحك والدها ويقبلها وهو يقص عليها قصة البطة السوداء التي كانت تثير ضحك وسخرية أخواتها البطات وجاراتها بسبب شكلها الغريب ولونها الغامق لتكتشف ذات يوم أنها لم تكن بطة وإنما بجعة وأن البيضة التي خرجت منها وجدت عن طريق الخطأ بين بيض البط.

أما ديما فلم تكن تلفت نظر أحد وصنفها والداها كصبي منذ البداية فكانا يشتريان لأختها الكبرى الفساتين ولها البنطلونات. لن تنسى ذلك الفستان الجميل المقلم بالأخضر والأبيض ذا الياقة البحرية البيضاء والخصر النافش والشريطة الكبيرة التي في ظهره. لبسته شذا في العيد بينما ارتدت هي البنطلون.

ديما "انزلي ارمي الزبالة" تصرخ فيها والدتها كل يوم فتتذمر قائلة:

"ليه أنا، ما تنزل شذا؟"

"شذا صبية ماحلوة تنزل قدام الجيران" ترد والدتها.

"تنزل سلمى"

"سلمى لساتها صغيرة بخاف عليها"

فتجيب صباح باستهبال وبرود "ستي، إذا ما بدها تنزل أنا بنزل"

"إنتي نظفي المطبخ" تجيب والدتها بصرامة.

كانت والدتها قد منعت صباح من النزول إلى الشارع بعد أن استغربت ذات يوم من تجمع العساكر في الثكنة العسكرية المقابلة للشقة وراء قضبان الشبابيك وهم يبتسمون ويلوحون ويرسلون القبل ويصفرون باتجاه شقتهم. ديما راقبت صباح وذات يوم اكتشفت السر وأبلغت والدتها بأن صباح تقف بالشلحة عند شباك المطبخ تسرح شعرها أمام العساكر. لو كانت ديما تعرف أن جزاء ذلك سيكون أنها أصبحت هي المسؤولة عن رمي الزبالة لما أفسدت عليها متعتها. عندما تتذمر ديما تمد لها صباح بلسانها قائلة "الله جازاك لأنك فسادة".

عندما شعرت ديما في أحد الأيام بألم في أسفل قدمها لم يصدقها أحد واعتقدت والدتها أنها تتحجج كي لا ترمي الزبالة فنهرتها

ووضعـــت الكيس بيدها ودفعتها على السـلم غضبًا عنها. لكن بعد عدة أيام وبعد أن اشـتد الألم لدرجة أنها كانت تبكي كلما دعسـت على قدمها قرر والداها أخذها لزيارة الطبيب. واكتشفا أنها لم تكن تكذب فقد قرر الطبيب أنها تحتاج إلى عملية في أسفل قدمها لإزالة مسمار جلدي يسبب لها الألم.

في المساء سمعت والدتها تنادي "صباح قومي ارمي الزبالة" وما أن مرت صباح من أمامها وهي تحمل الزبالة حتى أخرجت ديما لسانها لها.

في غرفة العمليات وقفت والدتها فوق رأسها تمسد لها شعرها وتلك كانت من المرات النادرة فلم يحدث أن مسدت لها شعرها من قبل أو عانقتها أو طبطبت عليها وحتى عندما كانت ترتمي في حضن والدتها من تلقاء نفسها كانت والدتها تتذمر منها وتدفعها عنها قائلة "آآاي فختيلي بطني حلي عني".

عندما شك الطبيب الإبرة في رجلها كمخدر موضعي تألمت ديما وصرخت دون صوت لأن ياقة معطف والدتها انحشرت في فمها عندما أدارت والدتها وجهها فجأة حتى لا ترى منظر الإبرة وهي تنغرس في قدمها.

4

الملاك الأبيض

تقضي ديما أغلب أوقاتها في منزل جدتها لأمها في حي ساحة النجمة القريب من حيهم حيث لا يفصل بينهما سوى شارع واحد. هنا تعيش جدتها وحدها بعد أن تركها زوجها وهاجر إلى ألمانيا ثم لحق به أبناؤه واحدًا تلو الآخر. لكن والدة ديما تتواجد معها باستمرار لمساعدتها خاصة بعد أن أصيبت بجلطة دماغية شلت يدها وأثرت على نطقها وأصبحت بالكاد قادرة على نطق بعض الكلمات غير المفهومة.

في هذه العمارة توطدت علاقة حميمية بينها وبين إبنة الجيران حُسن وابن عمها كميل، وكان لحُسن أخت أكبر منهم بكثير اسمها

أميرة، كانت تحبها لأن شعرها كان أسود فاحمًا وطويلًا يتجاوز خصرها وكان لها ابتسامة لطيفة.

عندما تعود ديما من مدرستها تسرع إلى منزل جدتها وتصعد السلم وهي تشم رائحة البطاطا المقلية الآتية من شقة حُسن. وما أن تدخل شقة جدتها حتى تجد باب الفرندة الكبيرة مفتوحًا على مصراعيه والشمس تملأ الصالة الكبيرة والثريا الكرستال الكبيرة التي تتوسط سقف الصالة تعكس ألوان الطيف على الحيطان بينما يقف زوزو على السلم ينظف زجاج باب الفرندة وهو ينقل أخبار الجيران لوالدتها.

لا بد أن تلمح زوزو وأنت تمشي في ساحة النجمة. رجل في منتصف الثلاثينيات من عمره يرتدي بنطلون تشارلستون أبيض وصديريًا قصيرًا تظهر من تحته عضلات بطنه ويكشف عن ساعديه المشدودين كالحديد. يلف حول رقبته فولار أحمر فيبدو كأنه بحار. زوزو يهرول من منزل إلى منزل وهو يعلك العلك ويتمايل بمؤخرته يمينًا وشمالًا كأنه امرأة، لذلك كان الرجال يأمنون جانبه ويسمحون له بدخول منازلهم في غيابهم. ذاع صيته لخفته وسرعته في التنظيف. كان يأتي لمنزل جدتها مرة بالأسبوع لينظف الواجهات الزجاجية الكبيرة والأسقف العالية والثريا الكرستال الكبيرة. أشياء لا تستطيع صباح إنجازها بجسدها الضئيل وقامتها القصيرة. ومنه

تعــرف والدتها أخبار الحي كلــه من تطلق ومن تزوج ومن ورث ومن مغضوب عليه ومن يخون زوجته ومع من.

ترمي ديما حقيبتها وتخلع مريلتها وتخرج إلى فرندة المطبخ تنظر إلى الفرندة السفلى فتجد حُسن تقف بانتظارها تأكل عروسة (سندويتش) بطاطا مقلية، كم تشتهيها من يد حُسن وتحسدها عليها خاصة وأنها تكره اللحمة المطبوخة واللحمة المفرومة التي كانت والدتها تطبخها مع البامية أو الفاصولية أو المحاشي وحتى الكبة كانت ترمي اللحمة المفرومة التي بداخلها في الزبالة من وراء ظهر والدتها قبل أن تأكلها.

تجتمع مع حُســن وكميل فــي مدخل العمــارة ويخرجون من جيوبهم أصابيع الطباشير التي سرقوها من المدرسة ويخطون بها على الأرض مربعات ثم يبدأ كل واحد منهم يرمي بحجره الخاص ويدفعه وهو يقف على قدم واحدة إلى داخل المربع على شــرط أن يتجاوز الخط المرســوم والذي يفشــل يصرخون به "صرت برة" فيخرج من اللعبة.

عند مدخل العمارة دكانة نجارة، ما أن يلمحها النجار برفقة والدتها حتى يخرج بسرعة من الدكان وهو يتدحرج نحوهما بقامته القصيرة المدعبلة وقلم رصاص معلق خلف أذنه وبرادة الخشب الناعمة تغطي وجهه فيبدو كأنه بلياتشو. يبربر بكلمات سريعة

غير مفهومة وكأن قرص كبة محشور بين فكيه "أهلين خانم أهلين شو مطول الوالد؟"

"لسا مو مبين" ترد والدتها ببرود كي تغيظه وتمضي.

كل ما يتمناه هذا النجار أن يموت جدها أو ألا يعود ليشتري أو يستأجر من الورثة خط التلفون.

مقابل النجار دكانة صغيرة فيها دكة خشبية ممتدة على طولها ومتآكلة وقد تحول خشبها إلى خطوط رفيعة تشبه التجاعيد الطولية المحفورة في وجه صاحب الدكانة. رجل قصير القامة، رفيع، ذو سحنة لئيمة مكشرة بشكل دائم. يبيع أسوأ أنواع ورق التجليد والدفاتر وأقلام الرصاص وعلب الكبريت وعلى الرف صف من القطرميزات (البرطمانات) يعلوها الغبار بعضها فارغ وبعضها به سكر نبات، بذر، قضامة (حمص) على سكر.

في إحدى المرات قامت هي وحُسن وكميل بقص صورة الليرات من كتب الرياضيات ولصقوها بدقة ببعضها البعض واشتروا بها من عنده بعض القضامة على سكر. في البداية لم ينتبه ولكن ما أن وصلوا إلى المنزل وهموا بأكلها حتى سمعوا صوته العالي وهو يصعد الدرج ويلعنهم.

الطابق الأرضي والأول دومًا معتمان واللمبة محروقة للتوفير.

الطابــق الثاني تدب الحياة فيه وتظهر لافتـــة معلقة فوق أحد بابي منزل أم حُســـن مكتوب عليها كوافيرة وصورة لرأس امرأة. وهو قســـم اقتطع من الشقة وحولته أم حُســـن إلى محل حلاقة تعمل به. وأنت تصعد تلمح الســـيدات جالســـات يقرأن المجلات ورؤوسهن محشورة في آلات تنشيف الشعر ويتناولن سيرة الأرملة التي تعيش فـــي العمارة المقابلة مع ابنتيها الشـــابتين (كل مين شـــافني أرملة شـــمر وأجاني هرولة) تعلق إحداهـــن. كان جمال الأرملة وابنتيها ووجودهن وحدهن بـــدون رجل يزعج كل الجيران ويشـــعل نار الغيرة بين الجارات.

"دخلك ياعدرا" تعلق أم حُســـن وهي تقص شعر إحداهن عندما أخبرتها بأنها رأت بأم عينها رجلًا غريبًا يدخل شـــقتهن. أم حُسن، امرأة بملامح عادية، متوســـطة الطـــول، ممتلئة ولها كرش يندلق أمامهـــا ترتدي بشـــكل دائم تنورة وبلوزة بلون أســـود وتتدلى من رقبتها سلســـلة رفيعة معلق بها صليب صغير. تقص وتصبغ شعر كل جاراتهـــا في الحي إلا شـــعرها فتبقيه قصيرًا أســـود وأطرافه شائبة.

بيـــن الطابق الثانـــي والثالث على المصطبـــة كانت ديما تلعب مع حُســـن وكميل بعيدًا عن أعين والديها ووالدي حُســـن وكميل. يفترشـــون الأرض بالبطانية ويختفون تحت الملاية. يتقمص كميل

دور الدكتور، فيطلع على أعضائهما الجنسية وبدوره يخرج عضوه الصغير ويستعرض به أمامهما فتارة يجعله ينتصب وتارة ينكمش. ويشعر باللذة والفخر وهو يرى الدهشة ترتسم على وجهيهما خاصة وأنهما بالمقابل لا تستطيعان ادهاشه بشيء كهذا.

على نفس المصطبة وفجأة بدون موعد مسبق يظهر الملاك الأبيض. رجل في الخمسينيات من عمره يرتدي بدلة بيضاء وحذاء أبيض ويضع وردة حمراء في جيب بدلته ويغطي رأسه بطربوش أحمر. يقف على مصطبة منزل أم حُسن يغني لعبد الوهاب وهم يجلسون على درجات السلم يستمعون لصوته الجميل. كانت والدتها تطلب منه دومًا أغنية (ياوردة الحب الصافي) وسمعت والدتها تقص على أم حُسن أنها اصطحبت جدتها (والدة والدتها) ثلاث مرات بناء على طلبها إلى فيلم الوردة البيضاء عندما عرض في الشام لأول مرة. وفي المرات الثلاثة كانت جدتها تبكي وتشهق كأنها تراه للمرة الأولى أما والدتها فكانت تناولها المناديل طيلة عرض الفيلم... ياوردة الحب الصافي... تسلم ايدين اللي سقاك.... ياهل ترى.. ياهل ترى... إيه انكتب للفؤاد... شوك الضنى واللا عبير الوداد.... يغيب بعدها الملاك الأبيض. لا أحد يعلم أين يذهب ولا من أين أتى ولا متى سيعود. لكن بعد بضعة أيام يجدونه واقفًا على المصطبة بنفس الملابس يشدو بالغناء.

5

الغسالة العجيبة

تجلس جدتها كل يوم في الفرندة تدلك يدها في الشمس كما نصحها الأطباء. وفي الفرندة الصغيرة في العمارة المقابلة عجوز شكلها مخيف، لها ضفائر طويلة شائبة تتجاوز خصرها وبيتها دائمًا معتم من الداخل وتجدها دائمًا وحيدة وكأنه لا يزورها أحد. تخرج إلى فرندتها كل يوم لتطعم عصفورها المسجون في قفصه وتملأ التنكة من برميل المازوت وتتفقد علب النيدو الصدئة وبقايا عفش مكسور وكنبة تخرج رفاسات الحديد من بطنها. والدتها ووالدة حُسن يستخدمانها لإخافتهم عندما يتأخرون في اللعب في مدخل العمارة فتصرخان لهم من فرندة المطبخ "يالله ارجعوا على البيت هلق الختيارة بتخطفكن" يصدقون الكذبة ويهرولون إلى المنزل

وهم يلهثون ويـــرددون "كانت رح تخطفنا الختيارة". رغم أنهم لم يروها في حياتهم تمشي في الشارع.

جزء من الفرندة يطل على قصر الضيافة الذي سمعت أمها مرارًا وتكرارًا تصف لصديقاتها وعيناها تلتمعان كيف امتلأت الشوارع وفرندات المنازل والأسطح والشجر بجموع البشر يوم استقبال عبد الناصر "الكربوج" فيه كما تصفه والدتها.

تجلس والدتها في الصالة الكبيـــرة بروب النوم الوردي وجزء من الشـــمس يغطيها فتظهر تكشـــيرة على وجهها وتضيق عيناها وهي تضع على حجرها وعاء به كوسا وفاصوليا وأمامها طاولة صغيرة عليها صينية بها ورق عنب بينما الراديو الفيليبس الخشبي الكبير يبث مجموعة من الأغاني المتنوعة لعبد الحليم وعبد الوهاب وفايـــزة أحمد وكلما توقف عن البث تناديها "ديما" فتفهم ديما على الفـــور وتركض نحـــوه وتخبطه خبطة قوية يعـــود معها البث من جديد.

فجأة يرن جرس الباب. تركض ديما وتفتح، فإذا بخالتي والدتها (اللي وجهن بيقطع الرزق من البيت) قد جاءتا مع الأولاد. (اذكروا الديب وحضروا القضيب) تقول والدتها في مواقف كهذه. فاليوم كانت والدتها تتحدث عنهما على التلفون مع إحدى صديقاتها وسمعتها ديما تقول (أصلًا خالاتي ما بحبونا...).

تقف ديما متهيئة لطردهم وهي تضع يديها على خصرها وتهز بقدمها وقد حضرت بعض الجمل مثل (ياللا انقلعوا انتو ما بتحبونا) وفجأة تتسمر في مكانها باستغراب وهي ترى والدتها تتقدم نحوهما مبتسمة ثم تأخذهما بالأحضان والقبلات وينعم صوتها وهي تقول:

"كيفكن والله اشتقتلكن كتير كتير وين هالغيبة"

يدخلون إلى الصالة وعينا ابن الخالة على فخذيها وفخذي أختها يتوعدهما بالقرص. تلقيان التحية على جدتها التي تجلس في الفرندة. ثم تأخذ كل واحدة منهما مكانها في الصالة وهي تزيل غطاء رأسها ثم تأخذان من أمام والدتها ورق العنب والفاصوليا لمساعدتها.

قصيرتا القامة ولكل واحدة منهما وجه كأنه قطعة عجين بها تجويفان وشيئ في وسطها مكور يشبه الأنف وخط مستقيم تعرف أنه فم عندما تنطقان به.

تحضر ديما وأختها الكرة للعب في الصالة بدلًا من الدخول للغرفة واستفراد ابن الخالة بأفخاذهن.

يتصاعد الحوار بين والدتها وخالتيها شيئًا فشيئًا حتى يتحول إلى شجار ككل مرة ويبدأ لب الكوسا يتناثر في الهواء كلما أدخلت والدتها حفارة الكوسا بالكوساية وأخرجتها ملوحة بها أثناء الحديث وهي تتكلم بعصبية ملقية الاتهامات جزافًا هنا وهناك "شو عملتو

بالورثة تبع إمي؟! أخدتو كلشي انتي وياها، ماخليتو شي حتى جرابات ستي أخدتوها"

"يووه اللي بيسمعك بفكر كانت مكدسة الليرات الذهب تحت البلاطة" ترد إحدى الخالتين والفاصولياء تطير من يدها خارج الوعاء وهي تقطعها بعصبية فتقطع اصبعها معها وتمص الدم من حين لآخر لوقفه. بينما يدخل نصف الرز في ورقة العنب ويتطاير النصف الآخر من بين أصابع الخالة المغضوبة البيضاء المكتنزة وهي ترتعش من عصبيتها.

تطل الغسالة من باب الكوريدور وهي تتراقص يمينًا وشمالًا وتزحف بالتدريج إلى منتصف الصالة بصوتها الأجش.

"لك صباح.... يا صباح... تعي شوفي الخسالة (بدلًا من الغسالة باللهجة الشامية) صارت بنص الصالون...." تصرخ والدة ديما ثم تكمل الخناقة:

"أصلًا طول عمركن بتغارو من إمي لأنو جوازتها كانت أحسن من جوازاتكن "

"ليش شو شافت من أبوك غير الهم" ترد الخالة المغضوبة.

"طول عمرو أناني" تعلق الأخرى.

فجأة تصرخ شذا بأعلى صوتها بعد أن ارتطمت الكرة بالثريا

الكرستال وانكسرت قطعة منه وهوت على خدها فحفرت فيه خندقًا. تنهض الخالة المغضوبة من مكانها وتمسك ابنها وتوقعه ضربًا وهي تدعي عليه "وحمى تسلق بدنك سلق، إلهي، كلو بسببك".

"كنت ناسية باب الحمام مفتوح" ترد صباح ببرود وهي تسحب الغسالة إلى الداخل.

يعم الهدوء فتكتشف ديما أن الراديو قد توقف عن البث فتركض نحوه وتخبطه خبطة قوية فيعلن المذيع تقديم نشرة أخبار الظهيرة بتوقيت دمشق.

تنسحب جدتها إلى غرفتها بهدوء وكأن شيئًا لم يكن. تلحقها ديما بكأس الماء لتأخذ دواءها. تتأملها وهي مستلقية على السرير. لطالما تمنت أن تعرف بماذا تفكر جدتها وهي تجلس وحدها تنظر للأفق بصمت. ولماذا يغطي شيئ يشبه الدمع مقلتيها دائمًا. ولماذا يشبه وجهها وجه كلبها الأزرق الحزين وعيناها مبطنتان وحاجباها على شكل رقم ثمانية مثله. تعطي كأس الماء لجدتها وهي لا تعرف إن كانت تنظر إليها أم في اتجاه آخر لأن إحدى عينيها كانت قد أصيبت بالحول من شدة الألم وهي تلد أول أولادها كما أخبرتها والدتها.

أمام السرير صورة لجدتها وجدها في حفل زفافهما. كم كانت جدتها جميلة بفستانها الأبيض قبل أن تصاب بالحول. جدها أيضًا

أنيق وجميل وهو يرتدي بدلة وصديريًا ويضع بابيون حول عنقه.

على المشجب لاتزال بيجامة جدها معلقة كما هي منذ سافر. وعلى التسريحة زجاجة عطره (4711) وقد تبقى جزء قليل في قعرها بعد أن تبخر أغلبه بفعل الزمن. وبدلاته لا تزال معلقة في الخزانة. فهل ياترى سيعود جدها. سؤال لطالما سألته ولم يجبها أحد عليه مثلها مثل النجار الفارق الوحيد بينهما أنها تبحث عن الحقيقة بينما يبحث النجار عن خط التلفون.

فجأة تسمع ديما صوت الخالة المغضوبة تنادي على والدتها من الصالة بصوت عال "ميساء لا تنسي تحطي دبس الرمان للمحشي".

يتجمعون حول طاولة السفرة وكأن شيئًا لم يكن، بينما تسكب والدتها الأكل للضيوف وهي تعلق باستغراب:

"يووه ليش الكوسايات مفخوتين".

6

سحر السجادة الأفغانية

عندما تســـافر والدتهـــا إلى برلين مع جدتهـــا لعلاجها، تتوقف الحفلات في المنـــزل وتقتصر لقاءات والدها بأصحابه على بعض الزيارات المســـائية الخفيفة. فمن دونها يشـــعر بالوحدة. كانت كل شــــيء في حياته بعد وفاة والديه وبالأخص والدته التي كان متعلقًا بها بشدة حتى إنها ســـمعت والدتها تتهكم مرارًا على والدها كيف كان يدخـــل كل يوم صباحًا ويقبل والدته من رأســـها حتى أخمص قدميها "موه، موه، موه" تقلده والدتها.

ديما لم تكن تعرفها. توفيت قبل أن تولد. لكنها كانت تسمع من والدها وأقربائه أنها كانت أميرة أفغانية، جاءت مع والده الذي كان

يعمل في بلاط الملك أمان الله إلى الشام بعد الانقلاب عليه. تسمع أيضًا أن جدها سبقها وهرب من أفغانستان بملابس شحاذ وبعد ذلك بمدة لحقت به جدتها وهي حامل بوالدها. وعندما ولدته وأرادت تسجيل اسمه روح الله رفضت الجهات المعنية تسجيله بهذا الاسم فاستبدلته بحبيب الله.

قصص جدتها كانت تثير خيالها. لكنها كانت كلما تأملت صورها وقارنتها بصور الأميرات اللواتي قرأت عنهن ورأت صورهن في قصص المكتبة الخضراء بشعورهن الذهبية الطويلة والتيجان التي تعلو رؤوسهن ينتابها الشك. فجدتها لم تكن جميلة، كانت ملامحها حزينة، بشرتها سمراء داكنة، قصيرة القامة وشعرها أسود وقصير...

"بابا كيف تيتة أميرة بدون تاج على رأسها" تسأله باستغراب.

يكتفي والدها بهز رأسه مبتسمًا دون أن يفسر لها.

في سفر والدتهن يتولى والدها شؤون الطبخ فيعدهن بطبخ أرز بالبيلاو على طريقة والدته الأفغانية. فيدخل إلى المطبخ، يقطع إثنتي عشرة بصلة ثم يرميها بالزبالة ويخرج ودموعه تسيل على خديه وهو يخبرهن بأنه سيصطحبهن إلى المطعم.

"بابا ليش عم تبكي" تسأله ديما.

"هية دموع البصل بابا مافيني شي" يجيبها وهو يمسح دموعه

لكن ديما كانت تعرف بأنه كان يبكي لأنه اشتاق لوالدته.

في نهاية الاسبوع يأخذهن لزيارة قريبين له من طرف والدته. أخ وأخت في نهاية الستينيات من العمر. حضرا من أفغانستان للاستقرار في الشام بعد الانقلاب على الملك أمان الله. اختارا عمارة فاخرة في حي المالكي العريق وبنيا كوخًا خشبيًا على سطحها وعاشا به. على رغم الاهتراء البادي على ملابسهما الأنيقة التي أتيا بها من أفغانستان إلا أن مسحة من الكبرياء والإعتزاز بالنفس كانت تلفهما. عندما أرسل والدها إليهما في أحد الأيام مع عمو أبو محمد الساعي كيسًا من الأرز وآخر من السكر وعلبة سمنة رفضا الهدية واعتبراها إهانة لهما لأنه لم يجلبها بنفسه. بعد ذلك تعلم والدها الدرس جيدًا وأصبح يحمل الهدايا لهما بنفسه.

عندما يدق والدها بيده على الباب الخشبي ويفتحان له يرددان بفرح "حبيب جان، حبيب جان" وهما يقفزان أمام والدها ويحاولان التعلق بكتفيه حتى يستطيعا الوصول إلى وجنتيه لتقبيله لأنهما كانا قصيري القامة إلى درجة كبيرة. بعد أن يستلما الهدايا منه وعيونهما تمتلىء بالحب والامتنان له يأتي دور ديما فما أن تدخل مع والدها إلى الكوخ الذي يعبق برائحة الأرز البخاري ببهارات البيلاو حتى تقبلها المرأة فتحتك شواربها الطويلة وشفتاها المكرمشتان وشامتها الكبيرة السوداء المترهلة بخدها فتشعر ديما بالقرف. ديما لم تكن تحبهما فتلك العجوز تذكرها بالعجوز الشريرة في قصة هانزل

وغريتل التي خطفت الولد وأخته وحبستهما في كوخ مشابه لهذا. ما أن تمضي العجوز حتى تدير ديما وجهها وتمسح القبلة.

في الكوخ كنبة وحيدة عبارة عن دكة خشبية مفروشة بسجادة أفغانية خمرية اللون، ما أن يجلس والدها عليها حتى ينطلق لسانه بالكلام باللغة الفارسية دون توقف. أما هي فتتنقل من فخذ إلى فخذ وهي تتألم بسبب وبر السجادة الأفغانية الذي ينغرس في مؤخرتها كالدبابيس.

7

سكة سفر

عندما عادت ديما في أحد الأيام من مدرستها وجدت والدها بصحبة بعض الغرباء يتجولون في المنزل من غرفة إلى غرفة. شعورهم شقراء ويتحدثون بلغة غريبة.

"بابا مين هدول؟" سألته باستغراب.

أخبرها والدها بأنهم عائلة روسية سيقومون باستئجار المنزل لأنهم سينتقلون مع جدتها للعيش في ألمانيا.

"عنجد بابا" ردت بفرح.

"بس ليش؟"

"لأنو ماما حابة تعيش جنب جدك وخوالك"

"طيب بيت تيته كبير كتير ليش هنن ما بيجو بعيشو هون"

"صعب يرجعوا"

"ليش صعب يرجعوا بابا؟"

"بابا ما تسألي كتير، صعب وبس" رد والدها بنزق.

"بابا وصباح كمان رح تروح معنا؟"

"لأ رح ترجع لعند أهلها"

"أحسن أصلًا ماما ما بتحبها بتقول عليها وقحة".

الفصل الثاني



1

برلين الغربية - حديقة الملاهي

ااااااااااا.. بابــا.... ماما.... با...... با....... ما...... ما تصرخ ديمــا وهي تقف داخل كابينة صغيرة في الصحن الدوار في حديقة الملاهــي. ترفع وجهها المتورد إلى الأعلــى وتفتح ذراعيها على مصراعيهما متحدية شـــدة الهواء التي تدفع جســدها بعنف للوراء وتكاد تطيرها في الفضاء هي وفســتانها الملون الجديد الذي تلقته مؤخرًا هدية من أحد أخوالها.

بــدا لها العالم من الأعلــى بدون حدود. فمــا أرض ألمانيا إلا امتداد لأرض الشام التي بدت لها من الطائرة كلوحة من المربعات الصفراء والبنيــة والخضراء. بعد ذلك نامــت كعادتها كما كانت

تنام بمجرد أن تركب السيارة وهي تردد مع صوت الراديو أغنية ياصراط الزين (بدلًا من ياصلاة الزين) على عزيزة يا صراط الزين... دون أن تفهم معناها. وعندما استيقظت كانوا قد وصلوا إلى مطار برلين الشرقية ومنها استقلوا الباص وقطعوا الحاجز للذهاب إلى برلين الغربية.

لم يخطر في بال ديما منذ أن وصلوا أن تسأل عن سبب هذه الحواجز العسكرية ولا عن هؤلاء الجنود المكدسين في بعض المحطات التي تفصل برلين الشرقية عن الغربية. فبالنسبة لها ما هم إلا كأولئك العساكر الموجودين في الثكنة العسكرية أمام منزلهم في الشام يغازلون صباح. ومن يعلم ربما كان لأحدهم حبيبة ألمانية اسمها صباح أيضًا.

تعلو وتهبط وما بين علو وهبوط تتألق من بعيد أضواء الإعلانات الضخمة التي تزين المتاجر الشهيرة التي ما أن دخلتها ديما حتى بدت لها بقالية نورا التي كانت بالنسبة لها أكبر بقالية في العالم، هزيلة جدًا. أما رأس البقرة الضاحكة فلم يعد يشكل لها أي سحر أمام كم الإعلانات الضخمة بإضاءتها الملونة الساحرة.

عندما دخلت للمرة الأولى من بوابة أحد هذه المتاجر صفع وجهها تيار من الهواء فأغمضت عينيها. وعندما فتحتهما تسمرت في مكانها والدهشة تعلو وجهها وهي تشاهد كمًا هائلًا وأنواعًا

لا حصر لها من الشـوكولا والبونبـون المعروض أمامها بأنواعه وأحجامه وأشـكاله المختلفة وأغلفته الأنيقة الملونة وبسرعة نسيت طعم شوكولا كرانش اليتيمة.

أما في قسـم الألعاب فلم تصدق عينيها عندما رأت في منتصفه قطارًا يسـير على السـكة الحديدية بعرباته المضاءة وهو يصعد ويهبط فوق التلال ويدخـل من نفق ويخرج من آخر ويتوقف عند الإشـارات كأنه قطار حقيقي. وكادت أنفاسها تنقطع عندما وجدت نفسـها في قسم الباربي بكافة أشـكالها وبملابسها الزهرية الجذابة وشعرها الأشـقر المصفف وإكسسواراتها ومنزلها وسيارتها وكل ما يتعلق بها من تفاصيل فأخذت تلمسـهما بيديها كي تتأكد من أنها لا تحلـم وبدا لها كلبها الأزرق الحزين، مملًا وغبيًا وتمنت لو أنها لم تحضره معها من الشام.

وفي قسم الملابس النسـائية وبينما كانوا ينتظرون ميساء التي مضـى على وجودها داخل كابينة القياس أكثر من سـاعتين تخلع فسـتانًا وتجرب آخر، دوت فجأة صفارة الإنذر. وتجمع الناس عند السلم الكهربائي يحاولون تخليص فخذ شذا الذي انحشر بين الحائط ودرابزين السلم عندما سـحبها للأعلى وهي تجلس عليه وتحاول أن تتزحلق كما كانت تفعل على درابزين سـلم العمارة في الشام. في النهاية وصل أحد العاملين في القسـم وأوقف السلم على الفور وأخرج لها فخذها الذي بقي مزرقًا لعدة أيام.

تعلو وتهبط وتشم رائحة بسكويت القلوب بالقرفة، والمكسرات والتفاح بالكراميل، الفورست المشوي (النقانق)، البطاطا المقلية.

تعلو وتهبط وترى حولها الأطفال يركبون أحصنة ملونة تتمايل للأمام والوراء على صوت الموسيقى فتتذكر حُسن وكميل. كم اشتاقت لهما وكم تتمنى لو كانا معها الآن. تدمع عيناها وهي تتذكر كيف كانوا في العيد يركبون ذلك الجحش القذر والمراجيح وهم يرددون "ياولاد محارب يويو شدوا القوالب يويو قوالب صيني يويو شكل الفليني....". لكنها فجأة فكرت بأنها رغم اشتياقها لهما، لو خيروها الآن بين البقاء في ألمانيا أو العودة إلى الشام فبالتأكيد ستختار ألمانيا. ففي كل يوم هنا تكتشف شيئًا جديدًا. فبالأمس فقط اكتشفت تلك الآلة الحديدية الممتلئة بالكرات البلاستيكية والتي ما أن تضع بها عشرة قروش حتى تتدحرج لها واحدة من تلك الكرات بداخلها بونبون.

تعلـــو وتهبط وتـــرى مجموعة من الناس تتشـــابك أياديهم وهم يتمايلون ناحية الشـــمال واليمين على صوت الموســـيقى وأمامهم كؤوس البيرة الكبيرة تتدفق مـــن حوافها الرغاوي البيضاء. رجل رث الثياب يســـتلقي على الأرض معانقًـــا زجاجة البيرة. المهرج. عـــازف الكمان. وفتاة جميلة تهرول للقـــاء حبيبها ونهداها يعلوان ويهبطان بحرية تحت فستانها الأبيض الذي يشف عن حلمات ثدييها. يستقبلها حبيبها ويقبلها من شفتيها ويترك يداه تداعبان مؤخرتها.

توقف الصحن الدوار دون أن تشعر. نزلت منه وركضت نحو عازف الكمان ورمت في قبعته بعض الفلوس كما رأت غيرها يفعل. وقبل أن تغادر مع عائلتها مدينة الملاهي شعرت بيد ناعمة تلمس شعرها فالتفتت وراءها فإذا بتلك الشابة وصديقها يبتسمان لها وهما يحملان دبدوب كبير يكاد يكون بطولها، ربحاه في إحدى الألعاب ويقدمانه هدية لها.

2

أصدر جدها قرارًا بأن تدخل هي وسلمى للنوم في السابعة مساء وعندما تذمرت قائلة "بس الدنيا لسا نهار ما عتمت" جاءها جوابه الصارم "هون الولاد الألمان اللي بعمرك بناموا بهادا الوقت".

"ايه أنا شامية مو ألمانية!" ردت بضيق.

صحيح أنهن في منزلهن في دمشق اعتدن على أن يذهبن للنوم بمجرد أن تبدأ نشرة أخبار الساعة الثامنة مساء. لكن ذلك كان طبيعيًا بالنسبة لها لأن السماء تكون قد أظلمت. أما أن تنام والشمس ما تزال تضيء السماء فهذا شيء لم تكن معتادة عليه ولم تقتنع به. لكن إصبع جدها الذي كان يلوحه أمام وجهها كان يخيفها فتدخل إلى السرير وتتقلب فيه بملل دون أن يغفو لها جفن.

لم يكن هذا هو القانون الوحيد الذي كان عليها أن تلتزم به فقد أصدر جدها قوانين أخرى كثيرة في فترة قصيرة. فما أن يرن جرس المنزل وتركض لتفتح الباب حتى يلوح إصبعه مجددًا في وجهها وهو ينظر إليها بعينيه الزرقاوين الباردتين ويردد:

"كم مـــرة قلتلك ما تفتحـــي الباب، أنا هون اللـــي بفتح الباب، سمعتي؟"

"إيه بس بالشام أنا اللي بفتح الباب وأحيانًا بضل الباب مفتوح ما منسكروا وباب بيت حُسن وكميل كمان بضل مفتوح".

البـــاب ممنوع فتحه، الركض ممنـــوع، القفز ممنوع، الصوت العالي ممنوع، اللعب على الدرج وبمدخل العمارة ممنوع. كل شيء ممتع بالنسبة لها ممنوع. ماذا تبقى لها لتفعله في هذه الشقة الكبيرة جدًا والمملة جدًا. خمسة غرف وصالة كبيرة من الطراز القديم ذي الأســقف العالية والأرضيات الخشبية. يعيش بها جدها بمفرده بعد أن تزوج أخوالها الثلاثة وانتقلوا للعيش في هامبورغ وضواحيها. الصالة منقســمة إلى قســمين أحدهما مقفل وممنوع دخوله. لكنها كانت تســترق النظر إليه كلما فتحه جدها ليســتقبل أحد أصدقائه، فتلمح أكوامًا من الأكياس المكدســة على الطربيزة والكنبة. أما في النصف الآخر من الصالة حيث تجتمع العائلة يوميًا، فهناك خزانة حائطية كبيرة علـــى أرففها توزعت بعض الصمديات الدمشــقية

كالعلب المطعمة بالصدف والنحاسيات إضافة إلى عدة ألبومات. ومقابلها على الحائط علم كبير للجمهورية العربية السورية.

"ماما ليش جدو معلق العلم؟"

"لأنو بحب الشام"

"لكن ليش عايش هون مو بالشام"

"لأنو بحب طريقة تفكير الألمان"

"إيه بس هو شامي مو الماني. وكمان ما بيحكي متل الألمان، بيحكي شامي متلنا، يعني لازم يعيش بالشام" ردت ديما باستغراب.

عندما وجدت ديما في إحدى المرات الصالة خالية وتأكدت أن جدها غير موجود في المنزل قررت أن تشبع فضولها وتبحث في أدراج الخزانة الحائطية علها تعثر على شيء مثير وتكسر حالة الملل والرتابة التي تعيشها.

في أحد الأدراج وجدت بعض قوالب الشوكولا وبعض زجاجات المشروب. وفي درج آخر وجدت بعض الدوسيهات وأقلامًا كثيرة متعددة الأشكال والألوان وبعض الأظرف والأوراق مكتوب عليها بخط جميل. كانت تعرف أنه خط جدها، فقد رأته في إحدى المرات وهو يكتب تعليقًا في أحد الألبومات تحت إحدى الصور. يبدو أنها

كانت إحدى هواياته. في درج آخر عثرت على عباءات دمشقية مطرزة (أغباني) كتلك التي تراها في سوق الحميدية.

لم يكن قد تبقى إلا درج واحد عندما كادت ديما تفقد الأمل بوجود أي شيىء يثير دهشتها. لكن ما أن فتحته حتى علت الدهشة وجهها عندما وقعت عيناها على قباقيب شـــامية بكل مقاساتها. وهي كانت من عشـــاقها، ولديها في غرفتها في الشـــام قباقيب غوار الصغيرة من كل الألوان، اشتراها لها والدها من سوق الحميدية. ولكن يبقى هنـــاك قبقاب واحد كان هـــو دومًا الأحب إلى قلبهـــا. قبقاب كبير موجود في حمام منزل عم والدها الســـاعاتي في حي المهاجرين. مقاســـه أكبر من كل المقاســـات العالمية المتعارف عليها. ويرتفع عن الأرض بحوالي عشـــرة سنتيمترات. عندما تذهب لزيارة العم والعمـــة مع والديهـــا، تدعي أنها تريد دخـــول الحمام وما أن تأذن لهـــا العمة حتى تركض بحمـــاس نحو الحمام وتدخـــل إليه وكلها فـــرح وإثارة وكأنها تدخل عالم الديزنـــي لاند. ما أن تضع قدميها الصغيرتين فيه حتـــى تنزلقا في مقدمته فتصبح طويلة جدًا، أطول من أختها شـــذا. تتمشى به في الحمام مستمتعة بصوته وهو يرتطم بالأرض. ثم ترخي سروالها وتقرفص فوق حفرة التواليت وقدماها تتراقصـــان فوق القبقاب وتكاد تقع فـــي الحفرة. فجأة ترى في ماء الجورة عيونًا تحملق فيها فتحســـبها عيون الشاطين. لطالما سمعت الخالة (اللي وجها بيقطع الرزق من البيت) توبخ صباح لأنها دلقت

الماء الساخن فيها وأزعجت الشياطين. تنهض من مكانها بذعر وتلبس سروالها بسرعة وتهم بالخروج دون أن تتذكر خلع القبقاب واستبداله بحذائها. وما أن تفتح الباب وتمد قدمها الأولى حتى تسمع عمة والدها تصرخ في وجهها "لا تطلعي بالقبقاب كلو نجاسة"...

"شو يعني نجاسة؟!"

سألتها ديما باستغراب لكن العمة لم تجبها فاكتفت بحملها خارج الحمام وإخراج قدميها من القبقاب قبل أن يلمس الأرض.

فجأة تنتفض ديما في مكانها بذعر وتهرب الدماء من أطرافها عندما تسمع صوت جدها "إذا مرة تانية بشوفك فاتحة شي درج أو باب خزانة ياويلك مني" تنظر خلفها فتجده يقف وراءها مادًا اصبعه في وجهها. تلك الإصبع كم تكرهها. ما أن يمضي حتى تمد لسانها له وهي تردد بينها وبين نفسها "أصلًا تيتي أحسن منك" ثم تبكي منه بحرقة. فمنذ وصلت وهي تشعر بأنه لا يحبها. ويفرق بالمعاملة بينها وبين أختها شذا. فبينما هي ممنوعة من السهر معهم، شذا مسموح لها. لكنها رغم ذلك لم تستسلم لأوامره. كانت تتسلل من سريرها وتمشي على رؤوس أصابعها وتقف وراء باب الصالة تتلصص عليهم من قفل الباب وهي تستمع لأحاديثهم. وفي إحدى المرات سمعته وهو يقول لأخوالها ووالدتها أن يجدوا لجدتها مكانًا آخر لأنه غير مسؤول عنها ويعتبر نفسه منفصلًا عنها حتى وإن لم يطلقها رسميًا.

استمرت ديما تتلصص دون أن يشعر بها أحد، إلى أن غفت في إحدى المرات وراء الباب فاكتشف أمرها. لكنها لم تستسلم وسرعان ما وجدت طريقة ثانية للتلصص. كانت ودون أن يراها أحد تثني نفسها وتدخل إلى إحدى الخزانات الموجودة في الصالة وتقفل على نفسها الباب. وبعد أن تنتهي الجلسة ويذهب كل منهم إلى سريره، تعود إلى سريرها. لكنها في إحدى المرات استيقظت من النوم لتجد نفسها محاطة بوجه جدها ووالدتها ووالدها ووابل من الغضب ينصب عليها بعد أن غفت في الخزانة حتى الصباح وعندما استيقظوا ولم يجدوها اعتقدوا أنها خطفت. وكادوا يبلغون الشرطة لولا أن والدتها فكرت في في اللحظة الأخيرة بالبحث عنها أولًا في كل الخزائن فوجدتها.

3

تنفست ديما الصعداء عندما قرر والداها الذهاب إلى هامبورغ برفقة جدتها لزيارة أخوالها. وما أسعدها وأثلج صدرها أكثر أن جدها لن يرافقهم. أخيرًا ستكون بعيدة عن أوامره العسكرية وإصبعه الكريه الذي يلوحه في وجهها كلما تنفست.

أول محطة لهم كانت في منزل خالها عماد وكانت هذه الرحلة ستعتبر أجمل رحلة في حياة ديما لولا أنه حدث شيء ما في نهايتها بسبب الكبار أفسدها.

استقبلتهم زوجته غودرون وابنتاه فيولا وزيمونة بالترحيب والمودة. كانتا في مثل عمرها. ولم تجد ديما أي صعوبة في التواصل معهما. ففي البداية كان التواصل عن طريق الإشارات

ثم تعلمـــت منهما بعض الكلمات الألمانية وعلمتهما بعض الكلمات العربية.

هنا تعرفت ديما على أول منزل الماني بترتيبه ونظافته وأناقته وأصص الزهور الملونة الموزعة بتناســق على حواف الشـــبابيك والشـــرفة. وهنا ذاقت الأكل الألماني لأول مرة وأعجبت بشـــكل كرات الســـبانخ لكـــن ما أن وضعتها في فمهـــا حتى بصقتها على الفور. بعد ذلك أخذت تتجنـــب الأكل وتعتمد على الخبز والأجبان والشوكولا.

مع فيولا وزيمونة كانت ديما تقضي معظم الوقت. في الصباح يتبادلن الملابس. ترتدي ملابسهما ويرتديان ملابسها التي أتت بها من الشام. ثم يذهبن إلى الحديقة المقابلة للمنزل. فيتجمع حولهن أبناء وبنات الجيران فتبدو كنجمة الحي القادمة من البلاد الحارة البعيدة وهم يسألونها عن معان لبعض الكلمات الألمانية بالعربي وهي تجيبهم:

"غوتن مورغن، يعني صباح الخير".

وفي إحدى المرات فاجأها أحد الصبية المشاغبين بسؤال "شو يعني شايزة بالعربي؟" في البداية خجلت من أن تجيبه لكن بعد إصرار الجميع أجابته على استحياء "شايزة يعني كاكا".

في الســـاعة السابعة مساء يدخلن إلى الأســـرة. لكن الأمر هنا كان سهلًا عليها. فبعد قضاء اليوم بطوله مع ابنتي خالها ومع أبناء الجيران وهي تركب الدراجة في الغابة المجاورة، كانت تغفو على الفور.

إلـــى هنـــا كادت الرحلة تمر بســـلام لولا أن ديما اشـــتكت في إحدى الأمســـيات من ألم في صدرها. وبعد أن كشـــف عليها خالها الطبيب رياض وطمأنهم بأنه عارض بسيط بسبب بعض التغيرات الهرمونية التي يمر بها جسدها، علق خالها عماد مازحًا معها:

"يعني بـــدو يصير عندك بزاز" ثم أطلق ضحكته العجيبة. كان خالهـــا عندما يضحـــك يفتح فمه عن آخره فتلمـــح ديما من مكانها لوزتيه وهمـــا تعلوان وتهبطان على وقع ضحكته ولســـانه مدلدل خارج فمه كأنه كلب.

"عقبال مرتك" علقت ميساء وهي تحملق في ثديي غودرون التي كانت تجلس بينهم بسلام. فانفجر الجميع بالضحك.

شـــعرت غودرون وفهمت علـــى الفور أنهـــم يتهكمون عليها فانســـحبت إلى غرفتها والدموع تنهمر من عينيها. فلحق بها عماد وفجأة علا الصياح داخل الغرفة. في النهاية خرج عماد من الغرفة وبيده حقيبة سفر فتح الباب الخارجي وهو يودعهم قائلًا:

"قال مرتي مابتحب حدا يعلق على بزازها"

"يي شو سخيفة" ردت ميساء.

وهكـــذا انتهت الزيـــارة الأولى. وبدأت الزيـــارة الثانية عندما اصطحبهم خالها رياض إلى منزله. لكن الزيارة ما لبثت أن انتهت بعد يوم واحد بســـبب الضيق الذي بدا علـــى وجه زوجته وولديه اللذيـــن اضطرا لإخلاء غرفتهما والنوم فـــي غرفة والديهما نظرًا لضيـــق غرفة الجلوس. وقبل أن تكتشـــف والدتها إن كان لزوجته "بزاز" أم لا، كانوا قد غادروا المنزل.

فـــي منزل خالها الثالث نزير كانت الأمور أبســـط. اســـتقبلتهم زوجته البشوشة الجميلة وهي ترتدي البكيني. حيث كان الجو دافئًا وكانت تأخذ حمامًا شمسيًا في حديقة المنزل ولحسن الحظ كان لها (بزاز... وبزاز حلوين كتير).

4

عادوا مرة أخرى إلى منزل جدها في برلين ولكن بدون جدتها. كانت حالتها الصحية قد ساءت واقترح خالها رياض إدخالها المستشفى الذي يعمل به.

كانـــت العلاقة بين ديمـــا وجدها قد ازدادت ســـوءًا هذه المرة. خاصة بعد أن اصطحب جدها شذا إلى السوق واشترى لها كاميرا وجلس في الصالة يعلمها كيف تستعملها بينما جلست ديما تراقبهما من بعيد وعيناها قد إغرورقتا بالدموع.

بدورها أيضًا أخذت تتعمد إغاظته واستفزازه فبمجرد أن يرن جرس الباب حتى تركض على الفور وتفتحه وهي تتأمل ملامح الرعب التي تبدو على وجهه كلما فعلت ذلك إلى أن بدأ يفقد أعصابه ويجن جنونه.

"ماما، ليش جدو بخاف؟"

"بخاف يهجم علينا شي مجرم أو حرامي"

"ليش المجرم أو الحرامي بدق الباب" تجيبها ديما باستغراب.

مع الوقت بدأ ضيوف جدها العرب كما ادعى يتوافدون من كل أنحاء الوطن العربي ويقيمون معهم. فمنهم تاجر (الجرابات) الشامي الشهير كما عرفهم عليه جدها والذي أتى من دمشق ليسوق بضاعته هنا والذي تناول حقيبة صغيرة وفتحها أمامهم في إحدى المرات وأخرج منها عدة أزواج من الجوارب وزعها عليهم كهدايا وهو يمط (جوز الجرابات) في وجوههم شارحًا لهم جودة مطاطه. في صباح اليوم التالي ارتدت ديما زوج الجوارب في قدميها. وما أن جاء المساء حتى انتابتها حالة جنونية من الحك من تحت مطاطه الذي ضغط على ساقيها وقسم كل واحدة منهما إلى جزئين متورمين.

لم تمض سوى بضعة أيام حتى انضم إلى المنزل ضيف آخر. في البداية سمعوا صوت مخاطه وهو في الحمام. ثم بعد ذلك قابلوه بالصدفة وهو يتمشى في الصالة ببيجامته المقلمة ومنشفته الملفوفة حول رقبته وهو يدخن سيجارته.

بعد بضعة أيام التقوا بالصدفة أيضًا في المطبخ بشابة تونسية مصابة بالبرد كانت تغطي رأسها بمنشفة والبخار يخرج من تحتها

وهي تستنشق رائحة الزعتر المغلي.

في النهاية اكتشـــفوا أن جدها كان يؤجر الغرف الخالية للعرب، وأن ذلك كان الســـبب الرئيســـي وراء خوفه حتى لا يكتشف أمره خاصـــة وأن المنزل لم يكـــن ملكه وإنما حصل عليـــه من الدولة الألمانية كلاجىء سياسي.

5

بينما كان والداها يقومان بحزم الحقائب استعدادًا للعودة إلى دمشق في الأيام القليلة القادمة بعد أن فشل والدها في الحصول على إقامة، حضر فجأة خالها رياض. في البداية اعتقدوا أنه جاء من هامبورغ لوداعهم، لكن بعد قليل اكتشفوا أنه جاء ليعرض على ميساء العمل بشكل مؤقت في مستشفى في برلين كممرضة مكان واحدة أخرى في إجازة.



الفصل الثالث



1

برلين الغربية ـ بلدة شبانداو

في أول يوم من أيام العام الدراسي، كانت ديما تقف وحدها في أحد أركان الباحة كعروسة المولد، ترتدي تنورة قصيرة حمراء وقميصًا أبيض منقوشًا عليه زهور متعددة الألوان. جواربها الحمراء مشدودة على ساقيها حتى ركبتيها. تلبس في قدميها قبقابًا أبيض تتوسطه فريزة حمراء. شعرها البني مشدود للخلف ومربوط كذيل حصان بشريط أحمر.

تتأمل التلاميذ وهم يلعبون ويجرون خلف بعضهم البعض أو يقفون في حلقات يتبادلون الأحاديث والضحكات. يرتدون ملابس قطنية بسيطة زاهية الألوان. وشعورهم المفرودة بحرية على

أكتافهم تلتمع تحت الشمس كأنها خيوط من الذهب. وبشرتهم البيضاء مشربة بالحمرة.

ما أن التقت عيناها بعيني إحدى الفتيات وهي تستعرض أمام شلتها فأرتها الصغيرة البيضاء وتقبلها من فمها وتتركها تمشي على ذراعيها حتى احمرت وجنتاها ووضعت نظرها في الأرض ومشت من مكانها وهي تهز حقيبتها الجديدة لتداري خجلها وتوترها. ثم حشرت لسانها داخل خدها فبدا كأنه وارم.

ما أن رن جرس المدرسة حتى أخذت تبحث بنظرها فوق الباب الرئيسي عن علم يرفرف لتقف أمامه بالطابور. لكنها فجأة تنبهت إلى أن الباحة كادت تفرغ من الطلبة الذين سبقوها للداخل فلحقت بهم.

في الفصل لاحظت أن المقاعد رصت جميعها في صف واحد على شكل حرف U فأخذت مقعدًا وجلست. كانت تلك هي المرة الأولى التي تتمكن فيها من الجلوس بالصف الأول. فكما جرت العادة في مدرستها في الشام، فإن المقاعد الأولى من نصيب أبناء المدرسين والواسطات ومقاعد الصف الثاني للمتفوقين والثالث للمهذبين من أمثالها والرابع للمشاغبين والكسالى.

علقت حقيبتها على المشجب الخاص بالمقعد واسترخت في جلستها وهي تشعر بالاطمئنان من عدم وجود مسمار يمزق لها

ملابســـها أو أن يفر من درج المكتب فأر وفي فمه بقايا سندويتش الزيت بالزعتر أو اللبنة المنسية فيه من اليوم السابق. فالفئران هنا مدللة كما رأت ولا تحتاج لتلك الأساليب الملتوية لتسد جوعها.

من شباك الصف الكبير أخذت تتأمل البلدة الصغيرة التي تحيط بقلعة شبانداو التي ســـميت البلدة على اسمها. قلعة حجرية محاطة بســـهول خضراء ولها برج عال وبوابة خشبية كبيرة مفتوحة على خنـــدق ماء يحيط بالقلعة. تشـــبه إلى حد كبير القـــلاع التي كانت تشاهدها في أفلام الديزني لاند في سينما الكندي عندما كانت تذهب مع كميل وحُسن في أيام الآحاد.

عندما دخل الأستاذ الشاب الأشقر الفصل وقفت ديما احترامًا له كما كانت تقف لمدرستها في الشام. "شدي جسمك، بدي ياك توقفي متل حرف الألف" كانت مدرستها تقول لها وهي تضربها بالعصا خلف ركبتيها.

وضع الأستاذ حقيبته على الطاولة ثم استدار وأخذ ينظر إليها بفضول منتظرًا منها أن تنطق بشيء ما. سادت حالة من الصمت بالفصل لثوان ثم بدأت تسمع حولها ضحكات مكبوتة. فجأة تنبهت إلى أنها تقف وحدها فجلست على الفور وهي تشعر بالخجل.

بعد أن حياهم الأستاذ وتمنى لهم أن يكونوا قد قضوا إجازة ممتعة نظر إليها وسألها مبتسمًا "عيد ميلادك اليوم؟"

"لأ" أجابته باستغراب.

"أنا آسف، افتكرت عيد ميلادك، لأنو لبسك جديد...."

وقبل أن يكمل كلامه انفجـــر الطلبة بالضحك فاصطبغ وجهها باللـــون الأحمـــر وطأطأت رأســـها واغرورقت عيناهـــا البنيتان بالدموع.

في داخلها كانت تشعر بأن بها شيئًا ما مختلفًا عن الباقين ولكنها لا تعرف ما هو، لونها، شكلها، أم ملابسها؟.

فيما عدا قبقابها لم يكن لديها الحرية في اختيار ملابسها. فعندما اصطحبتها والدتها معها إلى متجر C&A لتشتري لها الثياب وحاولت أن تختار لنفسها ملابس شبيهة بتلك التي رأتها على ابنتي خالها، منعتها والدتها وأصرت على أن تختار لها ملابسها بنفسها. ثم أجبرتها على دخول غرفة القياس لتجريبها وهي تبكي وتصرخ "مابدي ماحبيتهن" لكن والدتها دخلت وراءها وأجبرتها على خلع ثيابها وهي تخربشها بأظافرها الطويلة وتسبها قائلة:

"طالعة شرشوحة لأهل أبوك الأفغان".

"احكيلنا عن بلدك" قال لها المدرس بحماس بعد أن شعر بأنه أحرجها دون قصد منه.

بلدها! شيئ ما استيقظ داخلها فجأة وكأنها كانت في سبات عميق.

أين هي وأين بلدها الآن. من مدة طويلة لم يخطر على بالها... ثم لماذا يسألها عن بلدها ألم يقنعها كل من حولها بأن هذا هو بلدها الجديد.

قطع أفكارها صوت المدرس "تفضلي نحنا عم نسمعك" نظرت إليه كان جالسًا على الطاولة أمامها يلف إحدى ذراعيه على صدره ويسند بالأخرى ذقنه، بينما ينظر لها الطلبة بفضول....

عندمـــا فتحت فاها وبدأت تتحدث ســـمعت مـــن حولها بعض الهمهمات تصاحبها نظرات استغراب من المدرس فتنبهت فجأة إلى أنها تتحدث بالعربية فصمتت. وعندما حاولت التحدث بالألمانية لم تعد تتذكر أي جملة أو كلمة من كل الذي تعلمته في مدرســـة تعليم اللغة الألمانية للأجانب في المدة الأخيرة.

أخذت دقات قلبها تتسارع ويداها تتعرقان والسخونة تسري في كل أنحاء جسدها. ثم أحست دورانًا في رأسها وفجأة لم تعد ترى أمامها سوى ظلال ملونة ولم تعد تسمع سوى هدير يشبه هدير الطائرة.

"بلادكن فيها شـــمس كتير" علق الأســـتاذ وفجـــأة وكأن يدًا قد انتشلتها من الســـقوط فأجابت بســـرعة وانفعال "أنا بحب شمسها كتير".

أخذ الأستاذ يشرح للتلاميذ موقع سوريا على خريطة العالم بينما بدأت ديما تهدأ وتنتظم دقات قلبها وتستعيد أنفاسها من جديد. وما أن انتهى الاستاذ من الشرح حتى انطلق لسانها بالكلام ".... بس الشوارع وسخة....." قالت وشيئًا فشيئًا وجدت نفسها تجري مقارنة بين هنا وهناك.

عندما عادت إلى المنزل، لم تثرثر على العشاء كعادتها، ولم تتشاجر مع والدتها أو تدخل في معارك مع أختيها. جلست في ركن بعيد عن الجميع تستعيد ماقالته في الفصل عن بلدها. شعور غريب أخذ ينتابها للمرة الأولى في حياتها، شعور بتأنيب الضمير، شعور بأنها خانت بلدها رغم أنها لم تكن تقصد وكانت تقول الحقيقة فقط. سالت دمعة ساخنة على خدها وهي تتذكر حُسن وكميل وتردد بينها وبين نفسها:

"يالله شو اشتقتلكن".

2

تدفـع بظهرها دفة البوابة الخشـبية الكبيـرة لعمارة قديمة من عمارات ما قبـل الحرب العالمية الثانيـة. وبمجرد أن تتمكن من شـق الدفة الثقيلة قليلًا حتى تنزلق منها بسرعة إلى الممر قبل أن تنحشـر بين دفتي الباب. يخفق قلبهـا في الممر المظلم ريثما تعثر على مفتاح الإضاءة. تضغط عليه وتركض بسرعة قبل أن ينطفىء أوتوماتيكيًا.

قبـل أن تقطـع الممر قفزت فـي وجهها فجأة شـلة من الفتية والفتيات كانوا مختبئين فـي مدخلي العمارتين اللتين تتفرعان من على يمين وشـمال الممر. تسمرت في مكانها بعد أن تجمد الدم في عروقها من شدة الذعر. كانت دموعها على وشك أن تنفجر إلا أنها خافت أن تبدو ضعيفة أمامهم فتماسـكت ومنعت نفسها من البكاء.

وما أن استعادت أنفاســها حتى أكملت طريقها. أخذوا يلحقون بها وهم يقفزون أمامها، تارة يخرجون لها ألسنتهم، وتارة يلوحون لها بأصابعهم العشرة بإشارات مهينة.

لم تكن تلك هي المرة الأولى فمن يوم أن سكنت في تلك العمارة وهــي تصادفهم دومًا فــي المدخل يلعبون. فــي الأيام الأولى بعد أن ســكنوا كانت تمشــي أمامهم ببطىء أو تجلس عند عتبة مدخل عمارتها تمشــط شعر الباربي وهي تنظر نحوهم بطرف عينها من حيــن لآخر على أمل أن يتقدم أحدهم نحوهــا ويدعوها للانضمام إليهــم. لكن لم يحاول أي منهم. وأصبحــوا كلما مرت من أمامهم يتهامسون ويطلقون الضحكات أو يقلدون لغتها بطريقة ساخرة وهم يلحقون بها. لكنها كانت تتجاهلهم وتمضي.

بينما كانوا يقفزون أمامها لامست يد أحدهم خدها. لم تكن تعرف إذا كان ذلك عن طريق الصدفة أم عن قصد لكنها شعرت بإهانة شديدة فتوقفت وصرخت في وجهه حتى يبتعد عن طريقها. لكنه بقي واقفًا في مكانه وهو يمد لها لسانه. منظره كان مستفزًا لدرجة لم تعد تحتملها فما كان منها إلا أن دفعته بيدها بعيدًا عن طريقها وفجأة هجم عليها هو وشلته وانهالوا عليها بالضرب والركل.

خلصت نفسها منهم بصعوبة وركضت مسرعة خارج الممر إلى الفسحة السماوية ومنها إلى مدخل العمارة التي يقطنونها. صعدت

السلم والدموع تنهمر على خديها. وما أن وصلت إلى الدور الثالث حتى سمعت أنفاسًا لاهثة. ومن بين الأعمدة الخشبية لدرابزين السلم لمحت والدتها منحنية على درجات السلم تمسحها وحبات العرق تنساب على عنقها مبللة شامتها الخلفية وخصل شعرها، ودم الدورة الشهرية يرشح من مؤخرتها ويلوث بنطالها الجينز.

تسمرت في مكانها لثوان ريثما تستعيد أنفاسها وتهدأ دقات قلبها. ثم نزلت السلم الخشبي بهدوء حتى لا يصدر تأتأة ويجعل والدتها تشعر بوجودها وهي تتذكر أول يوم رأت فيه تلك الشقة مع والديها. كانت قذرة ورائحتها كريهة. أواني الطعام مرمية تحت الأسرة وفي المطبخ بقايا الطعام المتعفن داخلها وزجاجات المشروب الفارغة وعلب البيرة مرمية هنا وهناك في أرجاء الشقة. يومها سمعت السمسار يخبر والديها بأن الساكنة السابقة كانت مدمنة كحول وتوفيت وكانت هي المسؤولة عن تنظيف سلم العمارة مقابل تخفيض في أجرة الشقة.

ما أن وصلت إلى الدرجة الأخيرة عند عتبة باب العمارة حتى انهارت في مكانها وأجهشت بالبكاء. منذ سكنوا تلك العمارة وهي تخاف. تخاف من ظلمة المدخل. من الضوء الأوتاماتيكي الذي ينطفىء فجأة مسببًا لها الذعر. تخاف من النحل والدبابير التي تحوم في الفسحة السماوية عند الباب الخلفي لمصنع الحلويات وكلما

رأتهـــا تدخل أو تخرج من باب عمارتها تهاجمها فتخبىء رأســـها بحقيبتها وهي تكشـــها عنها. تخاف من صوت تأتأة السلم الخشبي كلما صعد أو نزل عليه شـــخص، تأتأة تشـــبه تلك التي سمعتها في فيلم دراكولا الذي عرض يوم السبت الماضي في التلفزيون. تخاف من تلك الغرف الصغيرة المغلقة بين كل طابق وآخر والتي أخبرها والدها أنها كانت تستعمل كحمام مشترك بين الجيران في الماضي. تخاف من قطـــار الفحم الذي كان يمر بعرباتـــه الصدأة من وراء منزلهم بصوته الأجش المرعب. وتخـــاف منهم..... كانت تجلس في مكان تستطيع منه رؤيتهم دون أن يروها. كانوا يتحلقون حول قائد الشلة الذي انقض عليها يضحكون ويلعبون وكأن شيئًا لم يكن. نزعت بكلة شـــعرها التي انكسرت، وأحســـت بحرق على يديها، كان الدم نافرًا مكان الخربشـــة التي حفرتها أظافرهم على جلدها. كانت الأتربة تغطي حقيبة مدرســـتها وقد تمزق جزء من معطفها. إلى متى ستتحمل كل تلك الإهانات كلما دخلت أو خرجت من باب العمارة.. أخذت تبكي بحرقة وهي تهمس في ســـرها "لو كان بابا موجود ما كان حدا استرجى يقرب عليي"....

أخذت دموعها تنهمر وهي تستعيد كيف قفزوا في وجهها وكيف انقضوا عليها وشـــدوها من شـــعرها.... ضحكاتهم.. سخريتهم... إهاناتهم لها... ألســـنتهم الممدودة في وجههـــا.... وفجأة لا تعرف كيف ومن أين جاءتها القوة، نهضت من مكانها، رمت بحقيبتها على

الأرض ثم خلعت معطفها ورمته بجانب الحقيبة واندفعت راكضة نحو زعيمهم وهو يلعـــب ومن ظهره ودون أن ينتبه انقضت على رأسه وأمسكت بشعره الأشقر الغزير بكل ما أوتيت من قوة، بينما تسمرت باقي الشلة في مكانها مشدوهة تحاول استيعاب ما يحدث. حاول تخليص نفسه منها لكنها كانت قد تمكنت منه وأصبحت فوقه تركله بقدميها على أنحاء متفرقة من جســده وكلما حاول تخليص رأسه كانت تحكم الإمساك بشعره أكثر وتغرز أظافرها بجلدة رأسه حتى أخذ يصرخ من الألم ويســتنجد بأصدقائه. أخذوا يشدونها من ظهرها وشــعرها لكي يخلصوه منها. لم تشــعر بالألم. كانت كلما شــدوها من شعرها تشد شعره بقوة أكبر وتلوح برأسه فيزداد ألمه وصراخه حتى يئسوا منها فتركوها وأخذوا يسحبونه من بين يديها إلى أن أفلت منها أخيرًا. وقبل أن يفلت تمامًا كانت قد خربشته من وجهه بأظافرها العشــرة وهربت بسرعة. أخذت حقيبتها ومعطفها وصعدت السلم وهي تسمع صوت بكائه يملىء الفسحة السماوية.

3

يهبط مصعد ويصعد آخر وهي ووالدتها يقفان أمام أحدهما يتحفزان للقفز داخله. مصاعد بدون أبواب تصعد وتهبط ببطء بين الطوابق حاملة معها المهاجرين الذين جاءوا للمبنى لتقديم طلب الإقامة. تغمض عينيها وتقفز داخل المصعد وهي تتخيل نفسها وقد انحشرت بين الطابقين. تفتح عينيها بعد أن تقفز خارجة منه وهي لا تعرف إن كان ذلك مجرد كابوس أو أنه حدث في الواقع. بعد ذلك تمشي ووالدتها في كوريدور دائري طويل تتوزع الأبواب الخشبية على أحد جانبيه. تدخلان من أحد تلك الأبواب إلى غرفة ممتلئة بالرجال والنساء والأطفال تحلق فوق رؤوسهم سحابة من دخان السجائر. تسحب والدتها ورقة كتب عليها رقم ثم تجلسان.

على أحد جوانب الغرفة عدد من الموظفين والموظفات يجلسون

وراء حاجز زجاجي يفحصون أوراق كل مهاجر على حدة وعلى الحائط فوق الحاجز مربعات سوداء داخلها أرقام بيضاء تصدر صوتًا رتيبًا (تك) كلما تغير الرقم.

تتفحص ديما المكان. تحملق في الوجوه ثم تنظر من الشباك حيث لا شيء سوى أشجار الخريف وبعض الباصات التي تمر في الشارع من وقت لآخر. تعود وتجلس بجانب والدتها متململة تهز ساقيها وهي تسأل والدتها:

"ماما بالشام كمان مناخد إقامة؟"

"لأ"

"طيب شو يعني إقامة؟...."

"يعني إذن ليسمحولنا نضل عايشين هون"

"وليش بالشام منعيش بدون إذن...؟"

"لأنو الشام بلدنا"

"إذا الشام بلدنا لكن ليش عايشين هون؟"

"هون أحسن"

"لأ مو أحسن بالشام عندي رفقاتي كميل وحُسن هون ما عندي رفقات"

يقلب الرقم تنظر والدتها نحوه...

"ماما ما جاوبتيني"

"شو بدك" تجيبها والدتها بنزق.

"خلينا نرجع على الشام، أنا برجع على مدرستي، وإنت بتعدي بالبيت وصباح بتجي بتنظف، وبابا بروح على الشغل"

يقلب الرقم، تنظر والدتها نحوه، ثم فجأة تنهض وتتجه نحو الموظفة تلحق بها ديما. تبتسم الموظفة لهما وهما تتقدمان نحوها. تقف ديما على رؤوس أصابعها بجانب والدتها تستمع إلى الموظفة وهي تستفسر من والدتها عن بعض المعلومات:

"شوي شوي، العمى شو غليظة (تعلق والدتها بالعربي أمام الموظفة لأنها تتحدث بسرعة) ثم تضيف بالألمانية (إيش فرشتيه نيشتس) أي (إيه ما فهمت شي) ولكن بلكنة شامية وهي تمد بوزها للأمام كما يفعل الألمان عندما يعترضون على شيء أو يتذمرون من شيء أو يبرطمون بكلام غير مفهوم.

"ماما إنت ليش بتمدي شفايفك لقدام لما بتحكي" سألتها ديما في إحدى المرات.

"مو صحيح هالحكي" أجابتها وهي تمد بوزها للأمام.

عندما حاولت ديما أن تشرح لوالدتها ما قالته الموظفة التفتت

والدتها نحوها فجأة وانفجرت بها قائلة "لك بعدي بقى لسا لازقة فيني" ثم دفعتها بيدها أمام الناس بعيدًا عنها وأكملت حديثها مع الموظفة.

التصقت ديما بالحائط واصطبغ وجهها باللون الأحمر وانتفخ خدها عندما حشرت لسانها به ولوت قدمها للداخل وأخذت تتشاغل باللعب بسحاب الجاكيت لتداري خجلها وهي تطأطأ رأسها بعد أن شعرت أن صوت والدتها العالي لفت أنظار الحاضرين إليهما.

4

اشتد البرد. برد غريب لم تعرفه ديما من قبل. كانت في طريقها من المدرسة إلى البيت عندما شعرت بخدر في وجهها وبعد قليل لم تعد تشعر بأنفها وشفتيها فمدت يديها تتلمس وجهها لتتأكد أنه مايزال موجودًا. كانت درجة الحرارة قد هبطت إلى ما تحت الصفر.

ما أن فتحت باب المنزل ودخلت حتى وصل لأسماعها صوت غناء فرقة (البوني إم) الصاخب آتيًا من الصالة فعرفت أن أختها مع مارينا.

منذ تعرفت شذا على مارينا حتى أصبحت مارينا محور حياتها وأقرب الناس إليها. ولا يكاد يمر يوم إلا ومارينا عندهن في المنزل أو شذا عند مارينا. أحيانًا تنقطع زيارات مارينا لعدة أيام بعد أن تنفجر والدتهن بالغضب أمامها وتتهمها وشذا بأنهما التهمتا كل

ما في الثلاجة من أكل كان مقدرًا له أن يكفيهن لمدة اسبوع.

شـــذا وماريـنا متماثلتان في الطول والشكل. تستمعان إلى نفس الموســيقى. ترتديان نفس الملابس. البنطلون الجينز والتيشــيرت القصير الذي يكشف البطن والظهر وفوقه الصديري الجينز حسب الموضة. لهما نفس قصة الشــعر. طويل مــن الوراء وقصير من الأمام ومنفوش فتبدوان كأختين.

كانت ديما تشعر بالغيظ من علاقتهما لأنها ما أن تدخل الصالة لتجلس معهما وتشاركهما أطراف الحديث حتى تصمتا وتتململا وتتبادلا النظرات فتشعر ديما بأنها شخص غير مرغوب فيه.

فتحت ديما باب الصالة دون أن تلحظا وجودها. كانتا منهمكتين في التدرب على الرقصة الجديدة وكل واحدة منهما تحرك رأسها يمينًا وشمالًا بعنف وبفمها سيجارة وشعورهما تطير بالهواء. ما أن لمحت ديما بلوفرها الأبيض الجديد وقد لبسته شذا حتى جن جنونها. فكم مرة طلبت من شذا ألا ترتدي لها بلوفراتها لأن رائحة السجائر تعشش بها إلى جانب أنها كانت تمط لها كميه وتنام به ثم تحشره في خزانة الملابس دون غسيل.

"كم مرة قلتلك لا تلبسي بلوفراتي" علقت ديما.

"اطلعي لبره" أجابتها شذا وهي تقفل الباب في وجهها. لكن ديما دفعت الباب ودخلت وأخذت تشد البلوفر بعنف من على جسد شذا

التي بدورها خلعت البلوفر وورمته من الشباك فعلق على الشجرة المقابلة للسكة الحديد. ما أن رأت ديما بلوفرها الأبيض وقد علق على الشجرة حتى نفرت الدموع من عينيها وهجمت على شذا تضربها وتركلها بقدميها ودخلت الاثنتان في معركة بينما أخذت مارينا تحاول تهدئة الوضع بينهما.

انفجرت ديما بالبكاء وتركتهما ودخلت إلى غرفة السفرة. كانت ماتزال باردة ومظلمة رغم وجود شباك كبير في صدرها يطل على السكة الحديد. أشعلت الإضاءة وفتحت باب المدفئة الصغير ووضعت بها قالب الفحم وأشعلته. ثم جلست على الأرض تستند بظهرها إلى جدار المدفأة البورسلين الأبيض تنتظر انتشار الحرارة به ليدفئها. كانت المدفئة تمتد من الأرض إلى السقف في زاوية الغرفة. قاعدتها على شكل مربع بعرض متر في متر. وفيما عدا الباب الصغير الذي لا يمر منه سوى قالب الفحم لم يكن لها أي فتحة أخرى أو شباك تستطيع ديما تأمل النار منه كما كانت تفعل بالشام. كانت مدفئة غرفتهم صغيرة ولها شباك تظهر من خلاله ألسنة اللهب فتمنحها شعورًا سريعًا بالدفيء. كانت ديما تحب تأمل اللهب وتأمل نقاط المازوت وهي تسقط ببطيء نقطة نقطة في مكانها.

ما أن تسلل الدفء إلى جسدها وإلى الغرفة حتى أحضرت منزل الباربي وجلست أمامه على الأرض. أضاءت اللمبديرة الصغيرة

داخل غرفة المعيشة في منزل الباربي ووزعت كل فرد من أفراد العائلة في مكان. الجدة تجلس أمام التلفزيون تحبك الصوف أما الوالد فوضعته خارج المنزل يقطع الخشب والأم في المطبخ تطهي الطعام للعائلة والأولاد في غرفهم يدرسون. استلقت على الأرض أمامهم تتأملهم وشيئًا فشيئًا نامت بجانبهم.

عندما استيقظت كان الثلج قد بدأ يتساقط بكثافة والساعة قد تجاوزت الثامنة مساء، ووالدتهما لم تحضر بعد. في العادة كانت تصل إلى المنزل في حدود الساعة السادسة مساء بعد أن تكون قد خرجت من المستشفى وذهبت لتلقي درس الألماني.

عندما اتصلن بمنزل جدها لم يرد أحد على الهاتف. جلسن على الكنبة في الصالة تحت غطاء ثقيل يلتصقن ببعضهن البعض ويرتعشن من الخوف.

"معقول ماما صرلها شي" علقت سلمى.

"نتصل ببابا؟" سألت ديما شذا.

"بخاف نشغلو بالو" ردت شذا.

"اشتقت لبابا" علقت سلمى وبدأت تبكي.

"لو ضلينا عايشين بالشام مو أحلى" علقت ديما.

"أحلى بكتير" ردت شذا.

"طيب ليش ما بتقولي هيك لماما" علقت ديما.

"مارح استفيد شي" ردت شذا.

فجأة رن جرس الهاتف فقفزن بسرعة من مكانهن وردت شذا ثم بعد قليل أغلقت الهاتف وهي تقول:

"تيتي ماتت"

ارتدين معاطفهن الثقيلة وقبعاتهن وكفوفهن الصوفية وخرجن من المنزل للذهاب إلى منزل جدها كما طلبت والدتها منهن. كان الصمت يطبق على الشارع وإضاءة الأعمدة الكهربائية تنعكس على الرصيف المغطى بالثلج. مشين إلى محطة الباص بحذر كي لا يتزحلقن. كانت ديما تنظر خلفها من حين لآخر خوفًا من أن يكون أحد يتبعهن. لكن لا شيء كان وراءهن ولا حتى آثار أقدامهن. كان الثلج يتساقط بكثافة ويمحوها.

الفصل الرابع



1

كانت ديما في غرفة التخزين في قبو العمارة تضع قطع الفحم الحجرية في السطل عندما سمعت فجأة وقع دعسات تقترب من باب القبو. عندما التفتت رأت خيالًا لشخص ما ينعكس على السلم. كاد قلبها يتوقف عن الخفقان لولا أن الرجل ظهر أمامها مبتسمًا وألقى التحية في الحال ثم مشى نحوها وجلس القرفصاء حتى أصبح وجه بمستوى وجهها. نظر إليها بعينيه الزرقاوين ومد يده مصافحًا ومعرفًا بنفسه (أوتتو). كان في الأربعينيات من عمره، طويلًا، عريض المنكبين وشعره يشبه حقل قمح محصود.

بعد أن عرفته بنفسها ساعدها في تعبئة الفحم بالسطل ثم طلب منها انتظاره حتى يحمله معها إلى المنزل. عندما عاد إليها حملها على كتفيه ثم حمل سطل الفحم بيده وصعد بها سلم القبو ومنه إلى سلم العمارة.

عندما وصلت إلى شقتها أنزلها من على كتفيه وسلم على والدتها التي كانت تحفر بالحفارة الكهربائية شيئًا ما في الباب. أخذ الحفارة من يدها وأكمل العمل عنها.

على الرغم من أنهن لم يصادفنه من قبل ولا مرة في العمارة أو على السلم، إلا أنه اتضح لهن أنه يسكن مع زوجته هيلغا في الشقة المجاورة لشقتهم.

هيلغا كانت إمرأة أربعينية، متوسطة الجمال، طويلة جدًا، ولها وجه طويل وأنف طويل ذو أرنبة مدببة. أما فمها فكان له بوز دائم يوحي بالتذمر على عكس شخصيتها اللطيفة. بدت لديما إلى حد ما تشبه زوجة بوباي Popeye. خاصة بمريلتها المنزلية المزهرة التي كانت ترتديها بشكل دائم فوق ملابسها وهي تلف شعرها الأشقر باللفافات.

سرعان ما تبادلن الزيارات معها وأطلقت عليها والدتها لقب (أم شكح) بينما أطلقت والدتها على الجارة الأخرى في الشقة المجاورة من الناحية الأخرى لشقتهم لقب (أم قويق) لأنها كانت كلما قابلتهن بالصدفة عند عتبة شقتها أو على السلم وألقين عليها التحية، تتجاهلهن وتمضي من أمامهن بوجه متجهم. من وراء ظهرها كانت ميساء تفتح أصابعها الخمسة وتلبع (تكبب) لها وهي تمد لها لسانها:

"ماما عيب افرضي شافتك" تقول ديما لوالدتها بخجل وخوف.

"إيه تشوفني شو خايفة منها" ترد والدتها بلا مبالاة.

أما في الطابق السفلي تحت شقتهم مباشرة فكانت تسكن إمرأة مسنة، ذات وجه أليف وطيب تدعى "غروس كوبف" يعني "رأس كبير" ولقبتها ميساء (أم رأس كبير) وكان لها رأس كبير بالفعل.

في البداية كانت العلاقة بينها وبينهن سيئة. صعدت إليهن عدة مرات واشتكت من أنها لا تستطيع النوم من الضجيج الذي يحدثنه فوق رأسها. لكنها بعد ذلك اعتادت على الأمر وأصبحت بمجرد أن تسمع تأتأة الخشب كلما صعدن أو نزلن السلم تسرع وتفتح الباب وهي تبتسم لهن وتعطيهن الشوكولا.

ديما ورغم حبها الشديد للشوكولا أصبحت مع الوقت كلما مرت من أمام شقة "أم رأس كبير" تصعد السلم على رؤس أصابعها حتى لا تسمعها لأنها كلما طبعت قبلة على خدها يلتصق طقم أسنانها به.

2

أخيرًا أصبح لهن جيران كما في الشام فمن وقت لآخر يزورهن أوتتو وهو يحمل لهن كيسًا مليئًا بالفورست من المصنع الذي يعمل به. وبعد قليل يمد فكه السفلي للأمام ويمشي على قدميه وساعديه كأنه قرد بينما تتنط هي وسلمى فوق الكنب وتهرولان من غرفة إلى غرفة وأصوات ضحكاتهما تملأ المنزل ووجهاهما يصطبغ بالأحمر والعرق يتصبب منهما أما أوتتو فكانت عيناه الزرقاوان تبرقان ووجهه يتحول للون الوردي وخاصة أذنيه وهو يضحك ملء شدقيه.

عندما يذهب إلى بلدة شبانداو للتبضع يأخذهن معه بسيارته الفولكسفاغن الحمراء. في ميدان البلدة الرئيسي تنتصب شجرة عيد الميلاد الضخمة المزينة بإضاءة جذابة ملونة ومحاطة بالمحلات

التجارية الضخمة والباعة الجائلين والملاهي التي انتصبت خصيصًا للاحتفال بالأعياد، كالأحصنة التي تدور على صوت الموسيقى. بعد أن يقضين الوقت معه وهو يأخذهن من لعبة إلى لعبة، يعدن إلى المنزل وبرقبة كل واحدة منهن معلق قلب كبير من البسكويت تفوح منه رائحة القرفة هدية من أوتتو.

في يومي السبت والأحد تصحو ديما على صوت جهاز القهوة ورائحتها اللذيذة التي تفوح في أرجاء البيت. بعد قليل تدخل هيلغا لتشربها مع والدتها. وعندما يسألنها عن أوتتو تمد بوزها إلى الأمام وهي تخبرهن بأنه يذهب في هذين اليومين بشكل دائم إلى برلين الشرقية لزيارة أصدقائه وبعض من أقاربه بعد أن يشتري لهن زجاجات المشروب وقوالب الشوكولا.

بعد مباراة في مد البوز بين هيلغا ووالدتها أثناء الحديث عن التنزيلات في محل C&A تنتهي هيلغا من شرب فنجان القهوة وتنهض وهي تخبر والدتها بأنها ذاهبة عند الكوافير لتسريح شعرها استعدادًا لسهرة السبت الراقصة.

الحديث بين هيلغا ووالدتها دومًا ينتهي بسرعة بمجرد أن يفرغ فنجان القهوة الألماني ويعود أبيض كما كان بلا رسومات وبلا أسرار. على عكس فنجان قهوة أم حُسن. فالحديث كان يطول بينها وبين والدتها بعد شرب القهوة، ويدور الفنجان بين أصابعها وهي

تصطحب والدتها إلى بانوراما من العوالم الخيالية فالرزقة وسكة السفر والأعداء والأحباء والأصدقاء والمستقبل كل ذلك في فنجان قهوة أم حُسن.

ديما كانت تحب الاستماع لتلك القصص. وفي إحدى المرات وبينما كانت أم حُسن تقرأ الفنجان لوالدتها سمعت ديما والدتها تقص لها عن شخص كان في زيارة لحماتها عندما رآها بالصدفة وهي تقطع الممر فامتقع وجهه فجأة وبدا عليه القلق ثم طلب رؤيتها وأخبرها بأنه قرأ على جبينها أنها ستعيش في جانب من الكرة الأرضية وزوجها سيعيش في جانب آخر منها.

3

عطشى، عطشى، عطشى، كلما ذهبت بعد المدرسة مع صديقتها الجديدة كارولا لتلعب في حديقة منزلها وشعرت بالعطش تحضر لها كارولا علبة كاكاو بالحليب أو عصير وهي تخجل أن تطلب الماء بعد أن لاحظت أن كارولا نفسها لا تشرب سوى الحليب والعصير.

تضع علبة الحليب بالكاكاو البارد على فمها وهي تتمنى لو كانت تضع فمها على حنفية الماء البارد الموجودة في محل النجار في الشام. كانت هي وحُسن وكميل يستأذنونه في الشرب منها بدلًا من الصعود إلى منازلهم أثناء اللعب في مدخل العمارة.

توطدت علاقتها بكارولا زميلتها في الفصل بعد أن طلب منهم الأستاذ في درس الفنون أن يشترك كل تلميذين منهم في موضوع

ما. كانت تتأمل القلعة من شباك الصف عندما خطر فجأة على بالها أن تبني واحدة شبيهة بها. عندما عرضت فكرتها على الصف أعجبت كارولا بها وانضمت إليها وبدأتا تخططان كيف ستبدآن بناءها.

أصبحت هي وكارولا لا تفترقان. فبعد أن تخرجا من المدرسة تذهبان إلى البلدة القديمة، تشتريان الفورست المقلي وتجلسان على أحد المقاعد الخشبية في ساحة البلدة، تأكلان الفورست وهما تتأملان القلعة إلى أن قررتا في أحد الأيام زيارتها واكتشفتا أن القلعة مفتوحة وفيها أنشطة فنية. فسجلتا نفسيهما في دورة لتعلم الرسم وأخرى لتعلم العزف على الكمان.

فجأة وجدت ديما نفسها في أحد الأيام تجلس في غرفة صغيرة من غرف هذه القلعة ترسم وتتأمل بلدة شبانداو وتتخيل نفسها أميرة تقف وراء هذه القضبان وضفيرتها الطويلة الشقراء تمتد خارج القلعة للأمير الذي جاء على حصان أبيض ليحررها.

كم تحب الشعر الطويل. والدتها لاتسمح لشعرها بأن يطول وكأن بينها بينه عداوة. فكلما طال شعرها تحلق لها بآلة كهربائية اشترتها خصيصًا لهذا الغرض، هذا إلى جانب أنها تحشرها كل يوم بين فخذيها حتى لا تفلت منها وتغرس أسنان الفرشاة في شعرها الخشن ثم تشد الفرشاة بقوة فتكاد جلدة رأسها تنسلخ عن عظم جمجمتها.

وكلما حاولت أن تخلص نفسها من بين فخذي والدتها وتهرب تعضها والدتها من يدها وتضربها بوكسًا على ظهرها.

رغم الانسجام بينها وبين كارولا إلا أن ذلك لم يمنعها من أن تلاحظ أثناء حصص الرياضة البدنية في المدرسة عندما كانت تتعرى هي وكارولا أمام بعضهما البعض لارتداء ملابس الرياضة أنها مختلفة عنها. فساقاها ممتلئتان وقصيرتان وفخذاها متباعدان عن بعضهما البعض. أما فخذا كارولا فكانا متلاقين ومنسابين باتساق حتى كعبيها. لاحظت أيضًا أن لحم جسدها طري ويهتز لأي حركة أثناء الرياضة ومؤخرتها مستوية. أما مؤخرة كارولا فكانت مرتفعة ومكورة كالكرة ولحمها متماسك لا يهتز.

4

"ماما أنا ليش رجليي سمان من تحت ورفاع من فوق"

سألت ديما والدتها في أحد الأيام وهي تقف امام المرآة في غرفة والدتها تجربُ الفساتين التي تقوم والدتها بالتخلص منهم.

"طالعة لستك الأفغانية"

"طيب ليش شذا وسلمى مو متلي؟"

"طالعين لخالاتي. مشهورين برجليهن الحلوين" ردت والدتها.

"يعني أنا رجليي بشعين؟" سألت ديما بغضب.

"أنا ما قلت بشعين" ردت والدتها ببرود.

"قلتـــي إنو رجليــن إخواتي طالعين حلوين لخالاتك هادا شــو يعني؟!، يعني رجليي موحلوين"

"والله هيك الله خلقك شو بتقطعيهن؟" ردت والدتها بعصبية.

"يعني رجليي بشعين!" تصرخ ديما.

"انقلعي من وجهي يالطيف شو غليظة طالعة لأبوك"

"بابا مالو غليظ ما تقولي هيك عنو"

خرجت ديما وجلست في الكوريدور وهي تبكي وتردد "أصلًا خالاتك هنن البشعين ورجليهن بتقرف".

"رجلين ستك اللي بقرفو" أجابتها والدتها من الغرفة.

"أصلًا تيتة أميرة" ردت ديما وهي تبكي.

"بلا أميرة بلا بلوط، صدقتي أبوك كلهن شوية قبائل أفغانية متخلفة"

"بابا ما بكذب"

"طز فيكي وبأبوك"

كانت ديما جالسة في الكوريدور تبكي وهي تتابع من شق الباب والدتها وهي تتخلص من فستانها الشيفون الوردي الذي لبسته يوم حفلة رأس السنة في الشام. فمن يوم أن وصلوا إلى برلين ووالدتها لم تلبسه ولا حتى مرة واحدة وبقي محشورًا في خزانة الملابس بين المعاطف الشتوية الثقيلة حتى تيبست طبقاته ولم تعد تطير. ومن

شق الباب أيضًا رأت والدتها وهي ترمي الجاكيت الكارو الأزرق بالأبيض الذي خاطته حتى تلبسه يوم السفر إلى برلين، ووصلة شعرها التي قضت ديما بسببها اليوم بطوله معها عند الكوافير ثم خرجتا من عنده وقد أصبح رأس والدتها بثلاثة طوابق. يومها نامت والدتها وهي جالسة كي تحتفظ بتسريحة شعرها لليوم التالي يوم السفر. الأحذية ذات الكعوب العالية ومشبك شعرها المرصع بالألماس وقميص نومها الساتان الحريري الموف المطرز بقلوب من الشيفون والذي اشترته من بيروت.

لم يبق في الخزانة إلا بناطلين جينز وبلوفرات وشالات من الصوف وبيجامات ومعاطف ثقيلة للثلج وأخرى خفيفة للمطر وأحذية رياضية وأبواط.

مسحت ديما دموعها ثم نهضت وذهبت إلى الصندوق تحت سريرها فتحته وأخرجت منه كلبها الأزرق الحزين. كان وجهه الكاوتشوك قد اسود ولونه الأزرق قد بهت فبدا لها أكثر حزنًا من ذي قبل. لم يعد هو نفسه كلبها الأزرق الحزين، فكرت ديما وهي تتأمله، وربما لم تعد هي نفسها ديما التي أحبته. أخذته ورمته فوق كوم الثياب.

"متأكدة ما عاد بدك ياه" سألتها والدتها.

"ما بحبو". أجابتها ديما بصوت حازم.

5

عندما أخبرتهن والدتها أنها ستصطحبهن معها إلى المعرض السنوي الذي يشارك فيه جدها رفضت ديما في البداية. كانت تفضل البقاء في المنزل وحدها على رؤية جدها. لكن عندما أخبرتها والدتها بأنهن سيتأخرن في العودة إلى ساعة متأخرة في الليل، عدلت ديما عن رأيها وقررت أن تذهب معهن لأنها تخاف من العتمة وتتخيل أن أشباحًا ستظهر لها وهي تجلس وحدها في المنزل.

كان العلم السوري المعلق على الحائط في منزل جدها يتصدر باب الجناح السوري. والقباقيب ومفارش الطاولات والعباءات الأغباني والأواني النحاسية والأراغيل وغيرها من الأشياء التي كان يحتفظ بها جدها في الصالة المغلقة في منزله جميعها معروضة.

عندما ذهبت كل من أختيها ووالدتها نحو جدها ليسلمن عليه

اختبأت ديما بين العباءات المعلقة. بعد قليل من الوقت أطل عليها من بيـــن العباءات وجه جميل مربع ذو فكين بارزين وعينين زرقاوين دافئتين وشـــعر كستنائي وابتسامة ساحرة. تلك كانت البائعة الشابة ســـونيا التي تعمل مع جدها. سألتها عن اســـمها ثم أخذت تدردش معها وســـرعان ما أصبحتا صديقتين فأحضرت لها سونيا كرسيًا وأجلستها بجانبها وهي تقوم بخدمة الزبائن.

عندما كانت ســـونيا تنحني أمام الزبون لتحضر شـــيئًا ما كان ثدياهـــا الأبيضان بحلمتيهما يظهران من تحـــت ياقة البلوفر وهما يتدليـــان كأثداء القطط. فيحمر وجه ديما وتشـــعر بالخجل وتشـــيح بوجهها عنها مستغربة كيف نسيت سونيا أن تلبس حمالة صدرها. شيئ لا يمكن لوالدتها أن تنساه وتخرج بدونه.

قبـــل أن تنتهي الزيارة نادتها والدتها لتســـلم على جدها. عندما رفضت جرتها والدتها غصبًا عنها من إحدى يديها بينما بقيت يدها الأخرى متشبثة بالعباءات حتى وقعت العباءات على الأرض.

كانت تساعد سونيا في إعادة ترتيب العباءات على الحامل عندما رأت جدها في وجهها. للوهلة الأولى اعتقدت أنه سيمد إصبعه في وجهها زاجرًا، لكنه بدلًا من ذلك مد لها بعلبة ممتلئة بالبونبون وهو ينظر إليها بعينيه الزرقاوين الباردتين وابتسامته مصطنعة ارتسمت على وجهه:

"أهلين جدو، أهلين حبيبتي، اشتقتلك، شو إنتي ما اشتقتيلي" قال لها مرحبًا لكنها أشاحت بنظرها عنه ورفضت أن تأخذ البونبونة وللحظة كاد لسانها أن يفلت منها وتقول له:

"إنت كذاب، إنت ما بتحبني"

فقد اكتشفت في إحدى المرات وهي تقلب في الألبومات الخاصة بجدها صورة لأختها شذا بجانبها تعليق كتب بخط يده "**هذا الملاك اسمه شذا**". وصورة لها علق تحتها "**ربي، لماذا لم تجعل هذه الطفلة تدخل إلى قلبي**".

لكنها تراجعت في اللحظة الأخيرة ولاذت بالصمت.



الفصل الخامس



1

نزلت ديما من الباص وركضت إلى مدخل العمارة. فتحته بسرعة رغم ثقله بعد أن اكتشفت طريقة جديدة أسهل لفتحه وهي بأن ترمي بثقلها كله عليه ثم تدفعه بظهرها وتنزلق بين دفتيه. كما أنها لم تعد تخاف من شلة الأولاد بعد أن أصبحت هي وقائد الشلة صديقين. فبعد أن صعد مع والده الخباز إلى منزلهن ليشتكياها لوالدتها وحكت له الحكاية من أولها، طلب من ابنه أن يعتذر لها. ومن يومها كلما صادفها والده في مدخل العمارة أو في محل الخبز يهديها قطعة من الكاتو.

ما إن دخلت المنزل حتى سارعت ووضعت قطعة الفحم في باب المدفأة الصغير وبقيت واقفة بجانبها حتى تأكدت من أنها بدأت تبث الدفىء في المنزل، ثم دخلت المطبخ وبدأت تحضر الطعام

وهي تحاول أن تتذكر كيف كانت والدتها تعد الرز والفاصوليا والسلطة.

كانت سعيدة جدًا خاصة وهي تضع على الطاولة خمسةأطباق... لماذا؟! لأن والدها كان قد عاد من الشام وكانت تريد أن تفاجئه هو ووالدتها بالطعام الدافيء وتوفر عليهما دخول المطبخ بعد أن يأتيا من الخارج وقد أنهكهما التعب والبرد.

من يوم أن وصل والدها وهي تحاول أن تكون مؤدبة على عكس الصورة التي كانت والدتها قد نقلتها له على التلفون "ديما عم تعذبني، عنيدة، ووقحة" وهناك شيء آخر أيضًا لا بد من ذكره، هذه المرة لم تفش ديما بسر أحد. لم تخبره، أن شذا تدخن وأن زميل والدتها المصري حسنين قد أطال في مسك كف والدتها وهي تودعه بعد أن اصطحبهن بسيارته إلى السوبرماركت لشراء الأكل إلى أن اضطرت هي بنفسها أن تتدخل وتسحب يد والدتها من كفه وهي تقول له (خلص بكفي صرلك ماسكها ساعتين). تعلم جيدًا أن والدها ينزعج من تلك التصرفات التي تقوم بها والدتها لكنها كانت تسعى من كل قلبها ألا يعكر صفو والديها أي شيء.

ما أن دخل والداها من باب المنزل حتى صرخت بفرح "عاملتلكن مفاجأة". جلس الجميع حول طاولة السفرة وبدأت ديما بسكب الأكل الذي طبخته في الأطباق. نزل الرز كتلة واحدة من الوعاء أما الفاصوليا فلم تكن قد استوت بعد.

لاحظت ديما وهي تأكل أن مسحة من الكآبة والحزن كانت بادية على وجه كل منهما. في البداية عزت ذلك لسوء الأحوال الجوية فالطقس كان عاصفًا والسماء ماطرة وملبدة بالغيوم السوداء. لكن ما لبثت أن شعرت بالضيق عندما ساد الصمت لمدة طويلة لم يقطعه إلا صوت القطار الأجش.

كانا يتناولان الطعام برتابة وبدون شهية فظنَت ديما أنها سبب تجهمهما وأنها لو حضرت الأكل بطريقة أفضل أو لم تتدخل بتحضيره من الأساس لكانا أسعد حالًا الآن.

بعد قليل وضع والدها شوكته وسكينته جانبًا وأخرج علبة الدخان من جيبه وشرع في إشعال سيجارة. إلتفتت ديما نحوه وسألته بإحباط...

"بابا ما حبيت الأكل؟"

"شبعت حبيبتي" أجابها وأخذ نفسًا من سيجارته وهو يعبث بأصابعه في غلاف علبة الدخان الشفاف ثم نظر لوالدتها التي كانت سارحة تتسلى بغرز الشوكة في الرز دون أن تأكله.

"بعتقد صار لازم نرجع على الشام"

علق والدها بعد أن تأكد من استحالة حصوله على إقامة طالب ليكمل دراسته الجامعية كما كان يرغب.

"عنجد بابا" ردت ديما بفرح مالبث أن تلاشى بسرعة عندما لم يحظ بأي ردة فعل أو تعليق من قبل والدتها وساد صمت جديد كسره سؤال والدتها:

"وشو ناوي تعمل بالشام؟"

"ارجع لوظيفتي طبعًا"

"وشو دخيلك شقفة هالوظيفة" قاطعته والدتها بطريقة ساخرة وهي تلوح بالشوكة حتى كادت تدخل في عين ديما.

"كنا عايشين منها معززين مكرمين ومو ناقصنا شي" رد والدها.

"على أساس ما كانت عاجبتك وظيفتك، نسيت كيف كنت كل يوم ترجع على البيت معصب وعم تشتكي من مديرك"

"على كل حال أفضل من هون. شو بدك ياني اشتغل هون زبال واللا عتال واللا لحام بشي سوبرماركت واللا اقعد بالبيت ومد إيدي أشحذ من الألمان معونة اجتماعية؟"

"اشتغل أي شي، شو فيها الشغل مو عيب، هي أنا عم اشتغل"

"ما كنت مضطرة للشغل كنتي عايشة بالشام معززة مكرمة..."

"بس نحنا هلق عايشين هون مو بالشام..."

"كلو بسبب أبوك.."

"أبي ما دخلو. لسا لاحقني بالهالإسطوانة ما بكفي بالشام هلكتني بقصة أبي..."

"لأنو أبوك هو السبب بكل مشاكلنا"

"مو صحيح إنت اللي طول عمرك بتعلق أخطاءك على أبي"

"إنتي بتعرفي بأني لولا أبوك لكنت ترقيت بوظيفتي بالشام وتغير حالنا من زمان......"

"إنت ضعيف، إنت ما عندك شخصية وما بتعرف تأخد حقك، بس شاطر ترجع على البيت من الشغل وتعصب علي وقدام مديرك بتقعد متل التوتو خايف منو"

"كرامتي فوق كلشي" صرخ والدها...

"إيه شو رح ياكلك" قاطعته ساخرة.

أطفأ سيجارته فجأة في الطبق وانتفض من مكانه غاضبًا وخرج كالزوبعة من غرفة السفرة. تناول معطفه من على المشجب وخرج من المنزل صافعًا الباب وراءه بقوة.

كانـــت دموع والدتها قد بدأت تســـيل على خديها عندما نهضت

ديما من مكانها وركضت إلى معطفها لبســته ولحقت بوالدها. "بابا استناني" نادت عليه من أعلى السلم.

أخذا يسيران بصمت تحت شمســيته السوداء الكبيرة والمطرة على أشدها ويدها تسترخي بأمان في يده الدافئة داخل جيب معطفه الرمادي الكبير. كم تمنت لو أن جيبه يتسع لها كلها.

بعد قليل كسرت الصمت وسألته بصوت قلق:

"بابا بدك تتركنا وترجع على الشام؟"

"كلنا رح نرجع مع بعض"

"وإذا ماما ما رضيت؟" سؤال كان يتجنب التفكير فيه...

بينما كان يبحث عن إجابة لسؤالها كانا قد اقتربا من أحد المتاجر الكبيرة فســألها إن كانت تحب أن يشــتري لها قالبًا من الشوكولا فوافقــت على الفور وتركت يده وركضــت باتجاه المتجر وما أن أصبحــت بالداخل واحتارت في أصناف الشــوكولا حتى نســيت سؤالها.

اكتشف والدها في المتجر أن الماركات القليلة التي كانت معه لا تكفي لشراء باكيت دخانه وقالب الشوكولا لها، لكن ديما أنقذته وأخرجت من جيبها كمًا من القروش النحاسية وأخذا يجمعانها قرشًا قرشًا حتى تمكنا من دفع الثمن.

تلك القروش كانت ديما تجمعها في الحصالة التي كانت تتلقاها

كهدية من البنك الذي تتعامل معه والدتها. حصالة على شكل فيل بدون قفل صممت لتفتح من تلقاء نفسها عندما تمتلىء. ديما لم يكن لديها الصبر فكانت تكسرها من تلقاء نفسها قبل أن تمتلىء.

2

"سونيا، سونيا، سونيا" أخذت ديما تصرخ بفرح وهي تقفز في مكانها بعد أن رن الباب وفتحته ووجدت سونيا تقف أمامها.

لم تكن الفرحة قد دخلت منزلهم منذ سافر والدها إلى دمشق. كان قد اتفق مع والدتها على أن يلحقن به جميعًا بعد نهاية العام الدراسي وبعد أن تكون قد أنهت عملها في المستشفى واشترت غسالة الملابس الأوتوماتيك وجلاية الصحون وشحنتهم قبلها كما اشترطت على والدها.

كانت ديما مزهوة بنفسها عندما أخبرتها سونيا أنها ستصطحبها معها وحدها دون أختيها إلى السيرك. ذلك يعني أنها أصبحت كبيرة بما يكفي لترافق سونيا.

في البداية اســتقلتا الباص لعدة محطات ثم نزلتا منه واســتقلتا القطــار الذي يســير تحت الأرض ثــم نزلتا منــه وركبتا القطار الذي يســير فوق الأرض ثم نزلتا منه وأخيرًا استقلتا الباص الذي سيوصلهم مباشرة إلى السيرك كما وعدتها سونيا.

رغم طول المسافة إلا أن الوقت مع سونيا بالنسبة لديما كان يمر بسرعة. فهي طيلة الوقت تطلب منها أن تحدثها عن الشام وديما تسترسل وهي تحكي لها عن حُسن وكميل وزوزو وخالتي والدتها (اللي وجهن بيقطع الرزق من البيت) وقرصات ابن الخالة والملاك الأبيض حتى أن سونيا بدأت تشعر بالملل وأخذت تنظر عبر النافذة.

"سونيا انتي ماعم تسمعيني" علقت ديما.

"عم اسمعك"

"طيب شو كنت عم قول؟!"

شعرت سونيا بأنها قد ورطت نفسها. ديما لم تكن تكذب. كانت سونيا فعلًا قد شعرت بالملل من ثرثرتها وسرحت بعيدًا عنها بأفكارها...

"أنا آســفة، أنا فعلًا ما كنت عم اســمعك، كنــت عم اتأكد من المحطة..."

"كنت عم احكيلك عن الملاك الأبيض..." لكن سونيا قاطعتها عندما لاحت من بعيد خيمة كبيرة ملونة، خيمة السيرك.

خرجت ديما من العرض وهي تشعر بالسعادة والإثارة خاصة وأنها المرة الأولى التي تحضر فيها السيرك. لكن فرحة ديما لم تكتمل للنهاية فبينما كانت تقف مع سونيا عند بائع غزل البنات تبولت دون إرادتها على نفسها بسبب الجلوس مدة طويلة في البرد.

أخذت سونيا تطيب خاطر ديما التي كانت تبكي وهي تشعر بالخجل الشديد من نفسها ومنها. فما فعلته لا يقوم به إلا الأطفال الأغبياء. فكيف يحدث لها وهي صديقة سونيا. لكن سونيا بالنهاية تمكنت من أن تجعلها تضحك بعد أن قصت عليها بعض المواقف المشابهة التي حدثت لها.

بعد أن خرجتا من السيرك اصطحبتها سونيا إلى حي غريب. منازله قديمة ومتهالكة. دخلتا إلى إحدى الحارات الضيقة ومنها إلى مدخل ضيق معتم وصعدتا للطابق الأول. رنت سونيا الجرس وفتح الباب وفجأة قفز فوق سونيا كلب أسود كبير، فصرخت ديما مبتعدة عنه وقلبها يكاد أن يتوقف.

ما أن رأت الكلب يلحس سونيا وسونيا تقبله من فمه حتى هدأت قليلًا واطمأنت ولاحظت أن رجلًا كان يقف بجانب الكلب شعره أشقر طويل. يبدو وكأنه لم يغسله من مدة طويلة.

بعد أن دخلوا جميعًا وجلسوا، أخذ الرجل يتابع التلفزيون دون أن يعيرهما أدنى اهتمام بينما أخذت سونيا تلعب مع الكلب. كانت ديما تتأمل ساعده الموشوم برسومات غريبة عندما كسرت سونيا الصمت وسألته:

"إنت منيح؟"

لم ينظر إليها ولم يجبها. نهضت سونيا من مكانها واتجهت إلى المطبخ يتبعها الكلب وتلحق بهما ديما. أخذت سونيا كيسًا من على الرف القذر وانحنت على طبق موجود على الأرض وأفرغت كمية من محتواه فتدلى ثدياها الأبيضان للمرة الثانية.

"سونيا إنت ليش ما بتلبسي سوتيان؟" سألتها ديما بانزعاج.

"هيك برتاح أكثر" ردت وهي تبتسم لها.

"سونيا هادا الرجال شو بيقربك؟" سألت ديما بصوت منخفض.

"رفيقي" ردت.

"طيب ليش ما رد عليكي لما حكيتي معو؟"

"متضايق؟"

"من شو؟"

كانت سونيا تبحث عن إجابة لها عندما قالت ديما فجأة:

"أنا بعرف من شو"

"شو بتعرفي؟" سألتها سونيا وهي تبتسم.

"هو زعلان منك لأنو ما أخذتيه معنا على السيرك....".

ما أن وصلت ديما إلى باب العمارة وودعت سونيا حتى ركضت نحو السلم صعدته درجتين درجتين كي تصل بسرعة وتحكي لوالدتها عن الفيل الذي يقف على قدمين اثنين فقط والأسد الذي يقفز من دائرة النار والساحر والبلياتشو. وكيف انقطعت أنفاسها عندما قفزت اللاعبة في الهواء ولم تتمكن من مسك يدي زميلها الذي كان يتأرجح في سقف السيرك فأغمضت ديما عينيها وصرخت وارتمت على سونيا بعدما اعتقدت أن اللاعبة قد سقطت على الأرض لكن سرعان ما اكتشفت أن اللاعبة وقعت على شبكة. ولن تنسى أن تحكي لها أيضًا عن الكلب الأسود الكبير وصديق سونيا الموشوم ووو...

فتحت ديما باب المنزل بمفتاحها المعلق بسلسلة في رقبتها ودخلت بسرعة وهي تلهث. كان المنزل معتمًا فيما عدا المطبخ، مما يعني أن أختيها غير موجودتين. هذه عادة والدتها عندما تكون وحدها في المنزل تطفىء إضاءة كل الغرف للتوفير.

كانت والدتها تقطع بعض الخضار ودموعها تسيل على خديها وهي تستمع لوردة الجزائرية.

"ده كان اسمه حبيبي كان.. ده كان.. كان يوم من نصيبي.. ضحيت بعمري معاه مشوار.. مشوار اسمه الحياة.... أنا.. أنا اللي بينكم هنا مش عارفة رايحة فين ولا فاكرة جيا منين، جابني الزمان هنا أنا..."

ما أن تقدمت نحوها وقالت لها "ماما ليش عم تبكي؟" حتى انفجرت والدتها كالبركان بوجهها وأخذت تدفعها خارج المطبخ والسكين ماتزال في يدها وهي تصرخ "ليش رجعتي كنتي خليكي مع سونيا، ياللا طلعي لبرة، يللا عيفيني بقى. لا تسأليني، لك خلص بقى تركوني لوحدى، تركوني عيش حياتي. مابدي حدا منكن"

خرجت ديما من المطبخ وهي تشعر بخوف حقيقي من والدتها. لم ترها على هذه الحال من قبل. دخلت غرفتها واختبأت في إحدى الزوايا وأخذت تبكي بعد أن اعتقدت أن والدتها قد جنت وأنها كادت تذبحها بالسكين.

3

ما أن تخرج ديما في الصباح الباكر من باب العمارة في طريقها إلى المدرسة حتى تبتلعها العتمة ولا يبدو منها إلا تلك الخطوط الفسفورية لحقيبة مدرستها المعلقة على كتفيها والتي تضيء في الظلام. عندما أعجبت بألوانها الفسفورية تلك واشترتها لم تكن تعلم وقتها أنها كانت مخصصة لهذا الغرض. الآن باتت تعرف.... باتت تعرف أن حقيبة مدرستها السوداء في الشام لم تكن تحتاج لتلك الألوان الفوسفورية لأن شمس الشام كانت تكفي لتعلن عن وجودها.

الشوارع تضج بالناس والتلاميذ منذ الصباح الباكر، كل يهرول إلى وجهته وكأنه قد تأخر عن موعده. يتكدس الناس عند محطات الباصات كالأصنام لا أحد ينظر في وجه الآخر. يمدون رقابهم من

معاطفهم للأمام وهم يبحلقون في أرقام الباصات التي تأتي تباعًا.

ما أن يبدأ ضوء النهار يطل بلونه الرمادي الكئيب حتى تكون ساعات الدراسة قد ولت وعادت إلى المنزل البارد وبعد منتصف النهار بثلاث ساعات يكون الليل قد خيم عليهن من جديد.

تمر الساعات حتى عودة والدتها إلى المنزل بطيئة مملة. تقف عند الشباك علها تستأنس بأحد الجيران في الشقق المجاورة. أنوار الشقق مطفأة. لا خيال لبشر ولا رائحة لطعام أو لقهوة. يمر اليوم بطوله دون أن تسمع وقع أقدام تصعد أو تهبط الدرج ودون أن يرن جرس المنزل أو الهاتف.

أصبح لكل منهن عالمها الخاص. شذا تقضي اليوم بطوله إما عند مارينا أو تستضيف مارينا عندها. يدخلان إلى الغرفة ويقفلان الباب وراءهما حتى تعود والدتها.

سلمى تجلس بعد عودتها من المدرسة أمام التلفزيون كالصنم تتابع أفلام الكرتون حتى تعود والدتها.

أما هي فقد توقفت عن حضور دروس الموسيقى والرسم في القلعة مع صديقتها كارولا لأنها تخاف أن تخرج من المنزل وتقطع البهو في العتمة. كما توقفت أيضًا عن متابعة التلفزيون بعد أن شاهدت في إحدى المرات فيلمًا سينمائيًا يحكي قصة طفلين يعيشان

بمفردهما مع والدتهما مدمنة الكحول. فجأة تموت فيكتمان الخبر ويتعاملان معها كأنها لاتزال تعيش حتى يكتشف الجيران أمرهما من رائحة الشقة ويبلغوا الشرطة.

كـــم تتمنى أن يرن جـــرس الباب وتفتحه وتفاجـــأ بوالدها يقف أمامها كمـــا حدث في المرة الماضية عندمـــا حضر فجأة دون أن يخبرهـــن بموعد قدومه. فجأة وجدته يقـــف أمامها بمعطفه الكبير التويد المقشـــش بالرمادي والأســـود، يحمل جريدة في يد وفي اليد الأخرى حقيبة سفره.

لم يخلع معطفه. من شدة المفاجأة هجمت عليه فحملها وبقيت في حجره لعدة ساعات. كان صوته حزينًا وهو يفتح الجريدة ويشير لوالدتها بإصبعه إلى صورة بها منازل مهدمة وهو يذكر الحرب.

"وين الحرب بابا؟"

"بالشام"

لم تحضر حربًا في حياتها ولم تعرف كيف تكون الحرب. كانت تعرف الحروب التي كانت تقوم بها الإمبراطورية الرومانية عن طريق الأفلام التي كانت تحضرها مع كارولا وأكثر ما كان يشدها لتلك الأفلام مشاهد المصارعات بين الأسرى وبين الأسود.

كانت تلـــك الجريدة عزيزة على والدهـــا. احتفظ بها طيلة تلك الأيام وعندما عاد إلى الشام أخذها معه.

والدها كان يحب قراءة الجرايد. عندما كان يصطحبها معه إلى قهوة كرانسلر حتى يريح والدتها منها لبضع ساعات في أيام الآحاد ريثما تنظف المنزل كانت ما أنّ تخرج من محطة القطار حتى تركض وتسبقه إلى الكشك. تبحث عن نوع الشوكولا الذي سيشتريه لها وهو يشتري علبة دخانه وجريدته.

يمشـــيان على الرصيف يتأملان واجهات المحلات. ما أن تلمح ســـقف مقهى كرانســـلر المميز بخطوطه الحمراء والبيضاء حتى تركض وتسبقه إلى هناك. المقهى ممتلىء بالعرب. أصواتهم عالية وهم يتحدثون وكأنهم يتعاركون. يجلسان عند الشباك. يطلب والدها قهوتـــه ويختفي وراء جريدته بينما تأكل هي الشـــوكولا وتتســـلى بمراقبة المارة.

"بابا" يخرج والدها رأسه من وراء الجريدة.

"نعم"

"ليش جدو السبب بكل مشاكلنا؟"

لم يجبها والدها على سؤالها وأخبرها بهدوء أن هذا الأمر ليس من شأنها.....

"طيب ليش جدو كان بالسجن؟" سألته بسرعة مقاطعة حديثه.

"مين خبرك؟"

"ماحدا قلي أنا عرفت لحالي، سمعت خالو عم يذكر ماما كيف كانو يروحو يزورو جدو بالسجن....."

"عيب تتسمعي على الناس" قاطعها زاجرًا.

وأكد عليها أن ذلك ليس من شأنها وأن عليها فقط أن تحترم جدها ووالدتها وأن تعده بألا تتحدث بهذه الأمور مرة أخرى، ثم اختفى وراء جريدته.

عندما تشتاق لوالدها تفتح الألبومات وتتأمل الصور حتى حفظتها عن ظهر قلب. فوالدتها أحضرت كل الصور التي كانت بحوزتهم في الشام ووزعتها على الألبومات حسب صلة القرابة. ألبوم لعائلة والدها. وألبوم لعائلة والدتها. وألبوم لها ولكل واحدة من أختيها. صورهن تبدأ في المستشفى منذ لحظة ولادتهن حتى اللحظة. والدها هو الذي كان يلتقط كل هذه الصور بكاميرته الروسية.

تتأمل الصور. تكاد لا تخلو صورة من خالتي والدتها (اللي وجهن بيقطع الرزق من البيت) حتى صباح لها حصة الأسد في هذه الصور فإن لم تظهر كلها لابد أن يظهر جزء من منديلها الأخضر أو تجدها تقف في خلفية الصورة أو إحدى زواياها تنظر للكاميرا بعينيها السوداوين.

تتأمل صورة لوالدتها ووالدها وهما يرقصان. يطوق والدها

خصر والدتها الرفيع بيديه وهو ينظر إليها مبتسمًا بينما تنظر والدتها للكاميرا وهي تسند رأسها على صدره برومانسية ويسترخي ذراعها العاري على كتفه والخاتم الألماسي يلتمع في إصبعها.

لا تــزال والدتها تحتفظ بهذا الخاتم الذي كان في الأصل لجدتها الأفغانيــة ثم أهدته لها. ديما معجبة بذوقه. خاتم له شــكل غريب. من الذهب الأبيض المشــغول، تتوســطه ألماســة كبيرة محاطة بأربع مثلثــات صغيرة من الزفير. بريقــه يخطف الأنظار ويبدو ثمينًا للغاية...... لكنه في الحقيقة كان مشروخًا من الداخل دون أن يلاحظه أحد. شــرخت ألماسته عندما وقع من إصبع والدتها الرفيع في الشارع أثناء قيادتها السيارة وانحشر تحت الدولاب عندما كانت تخرج يدها من الشباك وتؤشر بها لسيارة أخرى....

تتأمل فستان والدتها. فستان من القطيفة، يكشف عن ذراعيها وكتفيها الأبيضين. يضيق من عند الخصر ومنفوش بجيبونة وثدياها يظهران من فتحة الصدر منفوخين ككرتي قدم.

كم تغيــرت والدتهــا، تفكر ديمــا، فمن يــوم أن وصلوا إلى برليــن لم تعد والدتها تلبس فســاتين أو تضع مكياجًا أو تذهب إلى الكوافير. أصبحت تقص شــعرها وتصبغه بنفسها في البيت، وبدلًا من زجاجات العطور وعلب المكياج التي كانت تملأ التســريحة، أصبحت التسريحة تمتلىء ببخاخات مزيلات العرق وبعلب الفيكس

وبأنواع المراهم التي تسكن آلام الظهر والرقبة. ديما كانت تعرف سبب تلك الآلام سمعتها وهي تشتكي لخالها من أن ظهرها ورقبتها باتا يؤلمانها من وراء العجائز الذين يستندون على كتفها أثناء قيامها بتحميمهم في المستشفى. فيما عدا ذلك لا تعرف ديما أي شيء عن عمل والدتها إلا عن ذلك العجوز الذي كان يهدي والدتها علب الشوكولا الفاخرة وهو يعتقد أنها حبيبته اليهودية التي أضاعها في الحرب العالمية الثانية. كان يلحق بها من غرفة إلى غرفة وهو يناديها باسم حبيبته سوزي ويعدها بأنه ما إن يخرج من المستشفى حتى يتزوجا.

عندما تعود والدتها من عملها تأخذ دوشًا ساخنًا ثم تنادي عليها لتدهن لها رقبتها وأسفل ظهرها بعد ذلك تلف والدتها رقبتها بشال صوفي وتعانق قربة الماء الساخن وتندس في سريرها في وقت مبكر للنوم.

"ماما بكير عن النوم" تحتج ديما.

"تعبانة كتير، بدي نام، طلعي وإطفي الضو"

في إحدى المرات وبينما كانت ديما تعبث كعادتها بدرج من أدراج التسريحة. وجدت شيئًا غريبًا. شيء يشبه الصاروخ. لونه بيج. طوله عشرون سنتيمترًا وقطره خمس سنتيمترات ومدبب من أحد طرفيه. ما إن قبضت عليه وأخرجته من الدرج حتى ارتج بين

يديها فجأة مما أثار ذعرها ففلت من بين يديها ووقع على الأرض وأخذ يرتج وحده وهي تتأمله من بعيد.

"ماما شـــو هادا؟" ســـألت والدتها في أحد الأيـــام بعد أن عجز خيالها عن فهمه.

"بالأول إنت مين سمحك تدخللي لأوضتي وتنكشي بغراضي" صرخت والدتها بوجهها.

"ماما الله يخليك قوليلي شو هادا" ألحت ديما دون أن تهتم لصراخ والدتها هذه المرة من شدة الفضول.

"بعمل فيه مساج لوجهي"

"ليش شبو وجهك"

"عم يوجعني"

بعد ذلك لم تجده ديما في درج التسريحة. أخفته والدتها في مكان ما في الغرفة، قبل أن تكتشف ديما بأنه عضو ذكري من البلاستيك.

كم اشتاقت للشمس وللبحر. عندما كانوا يعيشون في طرطوس كان والدها يصطحبهم إلى البحر كل يوم بعد أن يحضر لهن قالب الكاتو الاسفنجي الذي تعلم صنعه من والدته.

تدخل هي وأختاها معه المطبخ يتفرجن عليه وهو يخفق البيض

ثم يضيف إليه الطحين والسكر والفانيليا ويبشر عليه ليمونة ثم يصب الخليط في قالب الكاتو بعد أن يكون قد دهنه بالزبدة وما أن ينتهي حتى يخطفن الوعاء من يده ويبدأن بلحس بقايا الخليط بأصابعهن ويستمتعن بطعم الفانيليا بالليمون وهن يراقبن قالب الكاتو من وراء زجاج الفرن وهو ينتفخ.

تتأمل صورة لها وهي متعلقة بأكتاف والدها وسط البحر تبكي. تفضل البقاء على الشاطىء. تحب دفىء الشمس واللعب بالرمال والاستمتاع بزرقة البحر من بعيد على عكس أختها شذا التي كانت تسبح حتى تصل إلى صخرة بعيدة في عمق البحر، تجلس عليها وتلوح لها بيدها.

تخاف هي من عمق البحر. تخاف من عتمته ومن برودة مائه كما تخاف من عتمة شتاء برلين وبرودة طقسها.

تقفل الألبوم وتشعر وكأن الشمس قد غابت فجأة كما كانت تغيب فجأة وهي تلعب على شاطىء البحر. تشعر بالبرد رغم أن المدفأة الكبيرة تعمل منذ الصباح. تنهض وتذهب إليها. تلتصق بها لكن قشعريرة برد تسري في أنحاء جسدها.

4

"ليش عم ترجفي؟" سألتها والدتها فجأة ذات مرة.

"مابعرف" ردت.

نعم لا تعرف كيف ومتى تشعر برعشة غريبة تسري في أنحاء جسدها فتحرك أكتافها لطردها.

فرحة ديما باهتمام والدتها بالرعشة جعلتها بعد ذلك تتقصد فعلها وهي تنظر بطرف عينها إلى وجه والدتها لتشاهد ردة فعلها.

استمرت ديما على هذه الحال عدة أيام، حتى لم تعد تعرف هي نفسها متى كانت ترتعش عن قصد ومتى كان يحدث ذلك غصبًا عنها. إلى أن اضطرت والدتها في النهاية لاصطحابها إلى الطبيب.

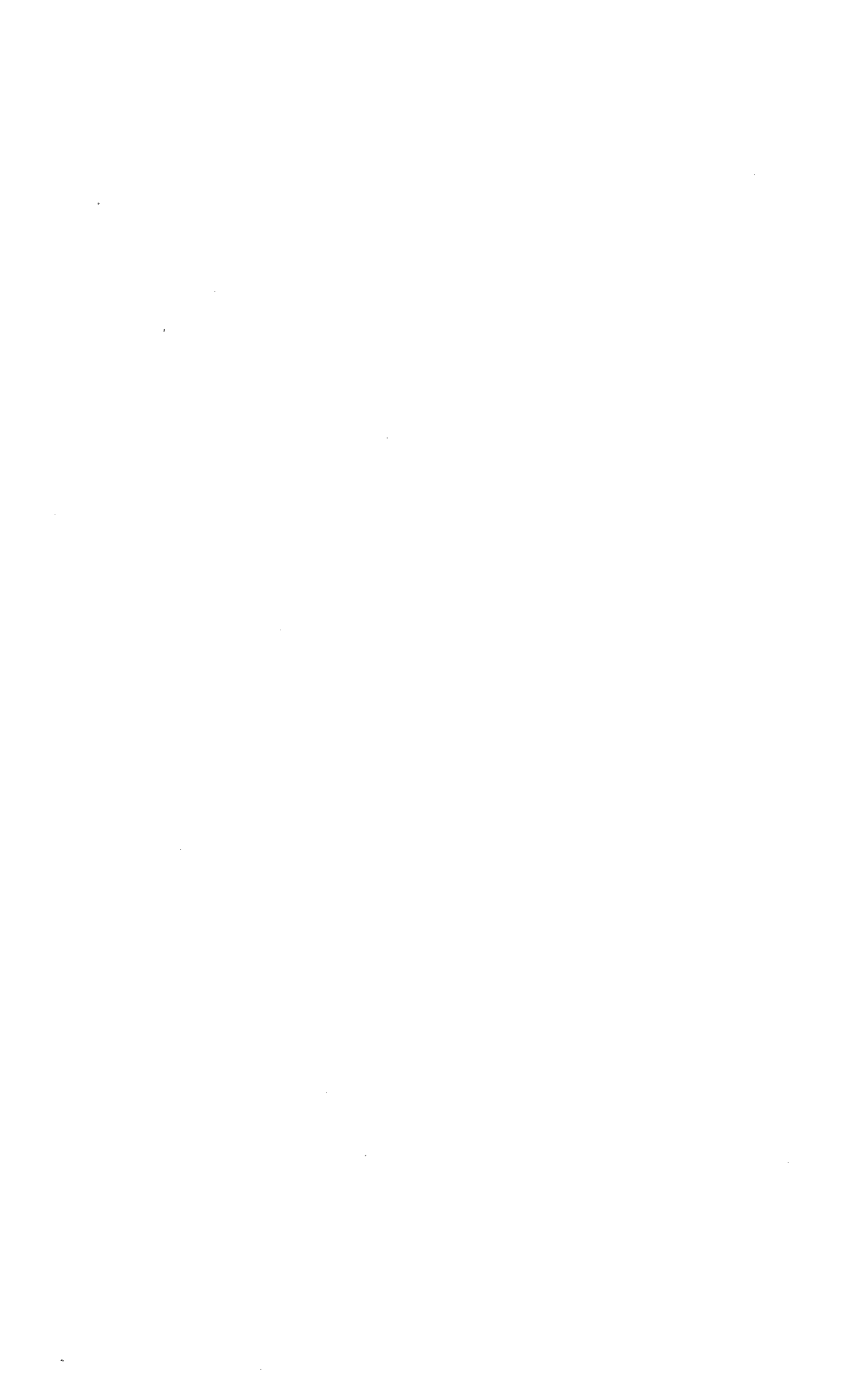
في القطار عندما كانت ديما تجلس بجانب والدتها نظرت والدتها نحوها ثم رفعت بيدها غرتها من على عينها وشبكتها بملقط شعر. عندما لامست يد والدتها الرقيقة جبهتها باستحياء، تمنت ديما لو تبقى تلك اليد على جبهتها. كم تشتاق لوالدتها وكم تشعر برغبة للاندساس في حضنها وشم رائحتها وتقبيلها لكنها كانت تخاف. تخاف لو فعلت ذلك أن تصرخ والدتها في وجهها "عيفيني هلق مو فاضيتلك" وتدفعها بعيدًا عنها أمام الناس.

لم تكن ديما تتصور أن الأمور ستتطور بهذا الشكل السريع عندما طلب منها الطبيب كتابة اسمها على ورقة ليرى مدى تأثير الرعشة على أعصابها فكتبت اسمها بخط متعرج وعندما طلب منها أن تعيد الكرة كتبته بخط أكثر تعرجًا، فطلب من والدتها التوجه بها في اليوم التالي للمستشفى لإحتجازها وعمل كشوفات طبية لها ووضعها تحت المراقبة لمعرفة السبب.

في المساء كانت ديما تجلس على السرير تتأمل وجه والدتها المرهق ونظراتها القلقة وهي تحضر لها حقيبتها التي ستأخذها معها إلى المستشفى. وبين كل حين وآخر تسألها بحنية لم تعهدها بها من قبل، ماذا تحب أن تصطحب معها من ألعابها وأشيائها.

شعرت ديما بالإشفاق على والدتها وكادت تعترف لها بأنها كذبت على الطبيب وعليها وبأنها تعمدت أن تكتب اسمها بهذا

الشـــكل. لكنها خافت أن تغضب منها وأن تفقد اهتمامها وحبها مرة أخرى فصمتت.



الفصل السادس



1

ألبستها الممرضة في رأسها قبعة مطاطية. تشبه تلك القبعات المطاطية التي كانت أم حُسن تلبسها لرؤوس زبائنها ثم تخرج من الثقوب الشعيرات لتصبغها بلون مختلف. الفرق بينهما أن هذه القبعة متصلة بأسلاك كهربائية ملونة أحمر وأصفر وأزرق.

"ليش لبستوني ياها؟" سألت ديما الممرضة وهي تحكم لها وضعها على رأسها. فشرحت لها الممرضة بأن تلك الأسلاك تتصل بجهاز في الغرفة المجاورة، وبأنها ستستلقي على السرير وتنظر إلى شاشة مضاءة أمامها ترسم أشكالاً غريبة حتى تدخل في نوم عميق. أثناء نومها سيسجل الجهاز أحلامها وأفكارها.

"إيه مالي نعسانة، بركي مانمت؟" ردت ديما باستغراب.

كانت ديما تستلقي على السرير باستسلام وتنظر إلى الشاشة وهي تفكر يالهم من أغبياء حتى يعتقدوا بأنها ستنام والبقعة الصفراء أمامها تكبر وتكبر كقرص الشمس وهي تستلقي على ظهرها على شاطىء البحر في طرطوس تركز نظرها في قرص الشمس متجاهلة نصيحة والدها بأن النظر في قرص الشمس مضر للعيون "بدي أعرف شوفي هونيك" تجيبه وهي تتحدى أشعة الشمس الحادة حتى تنفجر الشمس ويتبدد كل شيء أمامها ويصبح العالم كله برتقاليًا كما تحبه وكما كان عندما كانت تركض مع أولاد الجيران في بحر أحمر من شقائق النعمان بعد أن وصلهم خبر بوجود جحر لحية في الحرش. لم يجدوا الحية ولا جحرها لكنها قطفت باقة من الزهور لتهديها لوالدتها....... تقف مع ابن الجيران في أحد شوارع طرطوس تحت زاروبة مياه قذرة ليستحما من التراب العالق بهما بدلًا من أن يحميها والدها وينزل الصابون على عينيها فيحرقهما وتبكي فيضربها بالليفة.... تركض على ضفة نهر بردى في حي بحرة الدفاقة لزيارة أهل والدتها.... تتعلق بسور النهر وترخي رأسها عليه وتستمع لخريره وهو يختلط ببكاء المواليد، هنا رمت جدتها بكل مشيمات أولادها.... تتأمل النهر وتتخيل بداخل كل زهرة نبتت على ضفتيه مولود..... تترك يد والدتها وتركض لدكانة بائع السكاكر تقف أمام القطرميزات (البرطمانات) الزجاجية الكبيرة تتأملها، الخضراء فيها بونبون بالنعناع، البيضاء بالمسك،

البنية بالقهوة، العسلية بالسمسم، الصفراء بالليمون، والزهرية بطعم الورد الجــوري، داخل كل بونبونة كتبت كلمتــان (بحرة الدفاقة) "عمو عبيلي بالكيس من كل الألــوان"....... تركض بين أصص الزرع في أرض ديار منزل أهل والدها في حي الكلاسة بالعمارة، تبحث عن عروس بفســتان أبيض منفوش.... تصعد سلالم البيت وتدخل من غرفة وتخرج من أخرى.... تطل برأسها من الشبابيك المقوســة فلا ترى أمامها سوى مآذن وقباب وكنائس وبيوت قديمة وجدران حجرية ولا أثر للعروس ولا للفستان الأبيض المنفوش..... تهبط الســلالم وتدخل الصالة تتأمل البحرة التــي تحبها.... بحرة علــى شــكل وردة جورية من الرخام الأبيض، تهب نســمة هواء من الشــباك الأرابيســك فوقها فيتطاير رذاذها على وجهها. تفتح المشــربية على صحن الأموي فتــرى المصلين وجدرانًا خضراء وذهبية وأعمدة تنعكس عليها أشــعة الشمس البرتقالية لكنها لا تجد العروس بفســتانها الأبيض المنفوش "عمو وين مادنة العروس؟" تســأل عم والدها الســاعاتي بعد أن فقدت الأمل في العثور عليها فيؤشر لها بيده على مأذنة حجرية فيخيب ظنها وهي لا ترى أمامها سوى حجارة قديمة مغبرة..... تركض في حارة من حارات الشام وبيدها ورقة فيها قطعة حلاوة تعلق بشعرها وملابسها وهي تأكلها. قدمها لها بائع الحلاوة عندما اصطحبها والدها إليه واشــترى منه علب الحلاوة بالفســتق الحلبي التي يحبها...... تصعد سلالم عالية

في طريق دمر.... تنام على كرسيين جمعهما والدها لها وهي تستمع لخرير نهر بردى.... حفيف شجر الصفصاف.... ارتطام مكعبات الثلج في كؤوس العرق..... رائحة اللحوم المشوية... ثرثرات الزبائن.... ثرثرات والدها ووالدتها وأصدقائهم.... ثرثرة هامسة بعدها قهقهات عالية.... وصوت أم كلثوم.... هل رأى الحب سكارى.. مثلنا..... كم بنينا من خيال حولنا... ومشينا في طريق مقمر... تثب الفرحة فيه قبلنا.... وضحكنا ضحك طفلين معًا وعدونا فسبقنا ظلنا.... البطاطا المقلية، البوظة العربي بالفستق، زوزو، الملاك الأبيض، حُسن وكميل، عم والدها الساعاتي، عبد الناصر الكربوج، الثريا الكرستال التي حفرت خد أختها، خالتا والدتها (اللي وجهن بيقطع الخميرة من البيت)، قرصات ابن الخالة الغليظ، صباح، بقالية نورا، رأس البقرة الضاحكة الأحمر، شوكولا كرانش اليتيمة، كعكة بيروت بالزعتر، بسكوت 555، شوكولا غندور بالفواكه، لعبة المربعات والحجر وصرخة (صرت برة)، سينما الكندي، ساحة النجمة، النجار أبو كرش مدعبل، الغسالة اللي بتمشي لوحدها، جدتها وهي تتشمس وتدعك يدها، جارتهم العجوز المرعبة، السجادة الأفغانية اللي بتشكوك، بابا، ماما، الفستان الوردي، قطار الفرح الذي يقوده والدها ليلة رأس السنة وكلبها الأزرق الحزين.......

....

....

....

....

....

....

....

....

2

"كاكا والـــلا بيبي؟" يســـألها الممــرض وهو يمســـك بالدفتر ويسجل.

"كاكا وبيبي" ترد ديما.

"الكاكا فاتح واللا غامق؟"

"ممممممم.... ما بتذكر" ترد ديما بعد أن تفكر.

نعم لا تذكر لأنها نسيت أن تنظر إليه اليوم. شيء ممل أن تتصبح كل يوم ببرازها لتعرف ما لونه. شيء ممل ومقزز.

أشـــياء كثيرة تضايق ديما في هذا المستشـــفى منها تلك الأسئلة الصباحيـــة المقرفة. وعندما تدخل الممرضة أو الممرض حســـب الوردية كل يوم في منتصف الليل فيصحيها من نومها وهو يكشف

على مؤخرتهـــا ليدخل بها ميزان الحرارة على الرغم من أنهم كل يوم في الصبـــاح يضعون الميزان بفمها. هذا إلى جانب مضايقات أخرى تتعلق ببعض الأودلاد الذين ينامون معها في الغرفة فبعضهم يبول في منتصف الليل على نفســـه فيرن الجرس المعلق على كتفه ويجعلهـــا تصحو مذعورة من نومها. أما في الطابق العلوي فهناك ولد يصحو في منتصف الليـــل ويركض في الكوريدور من غرفة إلى غرفة فيصحي باقي الأولاد من نومهم، والممرضون يركضون وراءه مما يسبب دربكة شديدة تصحيها من نومها. أحيانًا يفلت الزمام من أيدي الممرضين وينزل إلـــى طابقهم ويدخل غرفتها ليصحي صديقته إيزابيل التي تنام على الســـرير المجاور لسريرها. فيلحق به الممرضون ويحاولون السيطرة عليه وهو يقذفهم بأبشع الألفاظ ويرفســـهم بقدميه ووجه متعرق وخمري اللون. تعرفه ديما ولكنها لم تتحدث معه. تقابله في المطعم وفي غرفة اللعب وهو يجلس مع شـــلته. تجده عدوانيًا وقليل الأدب ويسيطر على شلته ويمنعهم من الاختلاط بغيرهم. فكثيرًا ما تتبادل النظرات مع إيزابيل وهي تبني قلعتها بالمكعبات الكبيرة وتشعر برغبة إيزابيل لمصاحبتها واللعب معها ولكنها تعرف أنها لا تجرؤ بسببه.

تفرح عندما تخبرها الممرضة بأن تنزل إلى الطابق الأول إلى عيادة الطبيبة النفســـية. تحب ما تفعله معها. أحيانًا تجلس معها في غرفة بها منزل خشبي صغير بدون سقف مقسم إلى غرف وتطلب

منها أن توزع الألعاب التي على شـــكل شــخوص في تلك الغرف الأب والأم والجـــدة والأولاد. وأحيانًـــا كانت تعطيها صورة لطفل يبكي أو يعزف على آلة موســـيقية وتطلب منها أن تحكي لها قصة عن ذلك الطفل وكيف تتخيل حياته.

يوم السبت تأتي والدتها لزيارتها ومعها شذا وسلمى وهي تحمل بيدها كيسًا كبيرًا من متجر C&A. تبحث في عيني والدتها عن تلك النظرة التي رأتها في عينيها يوم أتت بها للمستشفى وودعتها للمرة الأولى. نظرة يشوبها شيء من الشفقة والقلق والحزن، لكنها لا تجدها.

يجلسن على طرف سريرها بينما تجلس هي مقابلهن على طرف سرير إيزابيل تسرد عليهن تفاصيل يومياتها المملة وهن يستمعن إليها ويبتسمن لها. هل كان يجب أن تمرض حتى يحبونها تفكر ديما وهن يفتحن الأكياس ويقدمن لها أنواع الشوكولا التي تحبها والفساتين الجميلة والغيارات الداخلية الجديدة.

في نهاية الزيارة عندما يودعنها تشعر ديما بأنهن سعداء لأنهن سيعدن إلى المنزل حتى ولو من غيرها.

3

كانت تتناول وجبة الإفطار عندما دخلت إيزابيل وجلست بجانبها تتناول إفطارها وتخبرها بأن ذلك الولد قد خرج من المستشفى مع بعض الأولاد الآخرين من نفس الشلة.

في المساء لعبت في غرفة الألعاب مع إيزابيل. كانت فتاة في مثل سنها لها بشرة بيضاء وعينان زرقاوان وشعر أشقر أملس كيفما حركت رأسها يتحرك معها ويعود من تلقاء نفسه إلى شكله دون تسريح.

مع إيزابيل لم تعد تشعر بالوحشة والمستشفى أصبحت محتملة أكثر من ذي قبل. في الصباح تتناولان إفطارهما سويًا ثم تصعدان إلى الطابق العلوي لتتلقيا الدروس المدرسية في صف صغير. وفي المساء تدخلان غرفة اللعب وتنضمان إلى باقي الأولاد ليشاركوا

جميعًا الممرضة في صنع زينة عيد الميلاد.

مع الوقت وبعد أن خرج بعض الأولاد ودخل غيرهم، نقلوها هي وإيزابيل إلى غرفة بسريرين ولم يعد يفرقهما شيء إلا زيارات الأهل وساعات الكشف الطبي والمعالجة النفسية.

4

في يوم عيد الميلاد بينما كانت تجلس مع إيزابيل في البهو الذي تتوسطه شجرة عيد الميلاد المزينة بالزينة التي صنعوها، سمعتا فجأة أصواتًا غريبة آتية من الكوريدور. كان صوت أوتتو وهو يقلد صوت القرد ويقفز على قدميه وذراعيه والأولاد يركضون خلفه يضحكون ويقلدونه. ركضت نحوه وركبت على ظهره وهي تزهو بنفسها أمامهم.

جاء أوتتو بصحبة والدتها وأختيها لحضور حفلة عيد الميلاد. جلسوا في قاعة اللعب التي تحولت إلى قاعة إحتفال بالعيد بعد أن زينت ووضعت شجرة عيد الميلاد في إحدى زواياها.

كان الأطفال يغنـــون أغاني عيد الميـــلاد وإحدى الممرضات تصاحبهم بالعـــزف على البيانو، عندما دخلـــت هي وإيزابيل إلى

القاعة وهما تجلسـان على زلاجة الثلـج ومتنكرتان بملابس بابا نويل، يرنـان الأجراس التي في أيديهما وتحمـلان أكياس الهدايا علـى ظهرهما. بعـد ذلك قامتا بتوزيعها علـى الأطفال والأهالي والممرضات. وهما بدورهما تلقتا هدايا كثيرة.

سونيا أيضًا زارتها بعد ذلك وفاجأتها بأن أخذت إذنًا لها من إدارة المستشفى لاصطحابها إلى مقهى قريب. كانت سعيدة وهي تمشي بجانب سونيا خاصة وأنها لم تغادر المستشفى منذ دخلت إليها أي منذ أكثر من شهرين.

عادت إلى الغرفة متحمسة لتحكي لإيزابيل كيف جلست في المقهى وطلبت لها سونيا فنجان الشاي وقطعة كاتو مثلها وكيف سألتها عن المستشفى ووو....... لكنها فوجئت بوالدة إيزابيل في الغرفة تفتح الخزانة وتجمع ملابس إيزابيل في حقيبة وإيزابيل تجلس على حافة سريرها مطأطأة الرأس حزينة.

"نقلوك لغرفة تانية؟" سألت ديما إيزابيل.

لم تعلق إيزابيل، اكتفت بهز رأسها بالنفي والدموع تترقرق في عينيها وردت والدتها بدلًا منها "لأ، ايزابيل رح ترجع بكرة على البيت، ورح تجي تزوريها مهيك؟" هزت ديما رأسها بإحباط دون أن تعلق.

ما إن ودعتهما والدة إيزابيل وخرجت من الغرفة حتى سالت دموع إيزابيل على خديها، فجلست ديما بجانبها وعانقتها.

"شو مالك مبسوطة لأنك راجعة على البيت؟" هزت ايزابيل رأسها بالنفي وتناثر شعرها الأملس على خديها وعلق بدموعها وهي تقول:

"بدي ضل معك"

"طيب ما اشتقت لأبوك من زمان ما شفتيه؟" علقت ديما.

هــزت ايزابيل رأســها بالنفـــي والدموع مازالت تســيل على خديها...

"في حدا ما بيشتاق لأبوه؟!. علقت ديما باستغراب.

"هو ما بيسأل عني" ردت إيزابيل.

"يمكن مشغول" أجابتها ديما.

"أنا بكرهو" ردت إيزابيل.

"عيب"

كادت ديما أن تقول وهي تضع يدها على فمها من هول الصدمة، فهي لم تسمع في حياتها أحدًا يقول هذا على والديه. لكنها بعد قليل تخيلت نفسها تقف في منتصف الصالة في منزل جدها وتصرخ

به "أنا بكرهك". كادت ديما أن تنفجر من الضحك لكنها ضبطت نفسها وأخذت تهدأ إيزابيل.

في الليل نامتا في سرير واحد عاريتين تحضن كل منهما الأخرى.

5

الفراغ الذي تركته إيزابيل في حياة ديما لم تعوضه أي صداقة أخرى. أصبحت المستشفى بالنسبة لديما لا تطاق. كل شيء فيها ممل وخانق، الغرفة، السرير، البهو، المطعم، الصف، الثرثرة مع المعالجة النفسية، وذلك السؤال اليومي "كاكا واللا بيبي" أصبح يثير غثيانها، تلك الزيارات الأهلية والابتسامات البلهاء لحظة الوداع ملتها، ووضع الميزان في مؤخرتها......

منذ جاء ذلك الممرض الجديد وهي لا تطيق تلك اللحظة في منتصف الليل التي يدخل بها غرفتها المظلمة ويرخي لها سروالها ويضع الميزان في مؤخرتها. تعرفه من لمسة يده شيئًا ما يستفزها عندما يفعل ذلك لا تعرف ما هو لكنها تحسه خاصة عندما يطيل وضعه في مؤخرتها، فتقلب نفسها وتنظر إلى وجهه بغضب وهي

تتمنى ضربه. من إضاءة الشارع التي تنير جزءًا من وجهه تلمح جبينه المتعرق وتسمع أنفاسه المتقطعة.

في أحد الأيام وبينما كانت تقف في طابور طويل مع باقي الأطفال تنتظر دورها بملل حتى تأخذ تطعيمًا ما بساعدها، ما إن وصل دورها ووجدت نفسها تقف وجهًا لوجه أمامه حتى انتابتها حالة هستيرية ووجدت نفسها تدفعه عنها بعنف وتركض وهو يلحق بها. عندما أمسك بيدها عند السلم وجاءت عيناها في عينيه السوداوين خافت منهما فدفعته عنها بعنف ورَفسته فوقع من على السلم وهربت منه وهي تصرخ كالمجنونة.

بعد أن هدأت حالتها جاءت إليها المعالجة النفسية لتعرف ما الذي حدث فأخبرتها ديما بأنها لم تعد تحتمل البقاء هنا أكثر من ذلك وبأنها تشعر بالضيق وتريد أن تخرج.

عندما عادت إلى المنزل وسألت عن أوتتو أخبرتها ميساء أنه وهيلغا قد انفصلا منذ مدة وأصبح يسكن في مكان آخر.

وبعد مدة فهمت ديما أن أوتتو كان على علاقة عاطفية بامرأة أخرى تعيش في برلين الشرقية. وأن زياراته المتكررة لبرلين الشرقية كانت من أجلها إلى أن قام بتهريبها عبر الحدود بسيارته بعد أن لفها بسجادة ووضعها في صندوق السيارة دون أن يكتشف أمره.

الفصل السابع



1

وحـــدة (ثلاث تصفيقـــات) حرية (ثلاث تصفيقات) اشـــتراكية (ثلاث تصفيقات) تصرخ الرفيقة ديما "كما ينادونها" وتصفق وهي تقف في طابور المدرســـة الصباحي. تضع على رأسها قبعة كحلية اللون وتلف حول رقبتها فولارًا مكتوبًا عليه طلائع البعث ثم تنطلق بالغناء بحماس..

ســـوريا ياحبيبتي، أعـــدت لي كرامتي، أعدت لـــي هويتي.... في الحرب والكفاح وشـــعلة الجراح تنير درب ثورتي يا.... يايايا حبيبتي... قنالنا، جولاننا، ســـماؤنا وأرضنا تفديهم دماؤنا، تحميهم أبطالنا وبعثنا يســـير بمجده الكبير، مبشرًا بعودتي ورافعًا كرامتي مجددًا هويتي.... الآن (تصرخ ديما بحماس)... الآن الآن الآن... الآن... إني عربي يحق لي اسم أبي ومن أبي ومن أبي.. رصاص

بندقية لتصنع الحرية للأمة الأبية يا... يايايا حبيبتي....

تحب هذه الأغنية. وموسيقاها تجعل قلبها يهتز بين ضلوعها أثناء ترديدها لها. لكنها لا تعرف ما معنى الجولان والقتال والهوية والكفاح والثورة والبعث....

في الفرصة تقف وحدها في أحد أركان باحة المدرسة وهي تتأمل التلميذات. شعورها الآن لا يختلف كثيرًا عن شعورها وهي تقف في برلين في باحة المدرسة قبل أن تتعرف على صديقتها كارولا، في الحالتين تشعر بالوحدة. التلميذات أيضًا يتأملنها كلما مررن من أمامها وبصوت مهموس تقول واحدة للأخرى "هية البنت الألمانية".

كل يوم في طريقها من البيت إلى المدرسة ومن المدرسة إلى البيت تمر من أمام عمارة مهدمة.

"بابا كيف تهدمت"

"الاسرائيليين قصفوها بحرب تشرين"

سمعت باسرائيل من قبل من أستاذ مدرستها في برلين بعد أن أخبرته بأنها سورية فأخذ يشرح للطلبة أن سوريا بلد تقع بجانب اسرائيل.

"مين هدول الاسرائيليين بابا؟"

"اللي بيحتلو فلسطين"

عندما سألت والدها عن سبب احتلالهم لفلسطين أخبرها بأنهم قوم يدعون أنهم كانوا يعيشون منذ آلاف السنين في فلسطين وخرجوا منها والآن عادوا إليها من جديد.

"يعني هية بلدهن بالأصل؟"

"هيك بيدعوا، بس الكنعانيين عاشوا فيها من قبل"

في المدرسة لا تكف الفتيات عن ذكر الحرب وهن يتبادلن الذكريات فيما بينهن، كيف اختبأن في الملاجىء، وكيف كن يصمن رمضان وقتها. وكيف يشعرن بالخوف حتى الآن عندما تنطلق صفارة الإنذار أثناء تجريبها من حين لآخر.

في حصة الرسم والأشغال كانت كل المواضيع التي ترسمها الطالبات أو تصنعها تعبر عن الحرب، الطيارات والدبابات والشهداء والقنابل وهي تتساقط على العدو والعلم السوري مزروع في أرض القنيطرة يحمله جندي سوري وحوله جنود العدو بعد أن تساقطوا قتلى. فتقف قلعتها التي صنعتها من ملاقط الغسيل الخشبية بين أعمالهن غريبة، غريبة مثلها تمامًا.

تحب مدرسة الموسيقى. دربتهم في حصة الموسيقى على أغنية (وطني حبيبي الوطن الأكبر) ثم فاجأتهم في إحدى المرات

وأخبرتهم بأنهم سيقومون بغنائها في التلفزيون واختارتها من بين ما اختارت من تلميذات.

كانت سعيدة بأنها ستظهر بالتلفزيون وقضت اليوم بطوله قبل التصوير وهي تنظف قميصها الأبيض وتنورتها الكحلية وتكويهما لترتديهما كما طلبت منها المدرسة.

... وطني حبيبي الوطن الأكبر، يوم ورا يوم أمجاده بتكتر وإنتصاراته مالية حياته وطني بيكبر وبيتحرر وطني وطني...

كانت مندمجة في الغناء عندما بالت الفتاة التي تقف بجانبها على نفسها وتوقف التصوير. مسكينة تلك الفتاة بعد كل هذا الانتظار وكل تلك الفرحة التي كانت في عينيها عندما وصلوا، في النهاية خرجت من الاستوديو مطأطأة الرأس ودموعها على خديها وأكملوا الأغنية بدونها.

وطني ياماالك حبك قلبي.. وطني يا وطن الشعب العربي.. ياللي ناديت بالوحدة الكبرى بعد ماشفت جمال الثورة.. إنت كبير وأكبر كتير من الوجود كله.. من الخلود كله يا وطني....

تعود من المدرسة إلى منزل جدها في ساحة النجمة. فالمستأجرون الروس لا يزالون يسكنون في منزلهم في أبو رمانة.

تجلس على درجات مدخل العمارة كالسابق ولكن دون أن تنتظر أحدًا هذه المرة. فكميل لم يعد موجودًا في الشام. أخبرتها حُسن بأنه

انتقل مع أهله للعيش في لبنان وحتى حُسن وعائلتها سيلحقون بهم بعد فترة للعيش هناك لأن أخت حُسن أميرة مخطوبة لأخيه.

كانت تتأمل بلاط السلم عندما اكتشفت فجأة أن لونه أسود وشكله قبيـــح وأن العمارة مغبرة ومهترئة وتحتـــاج إلى طلاء جديد. كل شيء تغير في غيابها حتى حُسن صديقتها الوحيدة تغيرت... أنفها أصبـــح كبيرًا جدًا وكأن بطاطاية نمت مكانه، أيكون ذلك من كثرة ما أكلت بطاطا مقلية يا ترى... تفكر ديما... لكن ذلك لم يكن الشيء الوحيد الذي تغير في صديقتها حُســـن فمشاعر حُسن نحوها أيضًا تغيرت ولم تعد تتلهف لرؤيتها كما في السابق وكلما حملت ألعابها ونزلت إليها ورنت الجرس تفتح والدتها الباب وتقول لها إنها غير موجودة مع أنها متأكدة من أنها موجودة فقد رأتها من الفرندة وهي تدخل من باب العمارة. كذابة أم حُســـن، وحُسن أيضًا كذابة، لماذا تكذبان عليها؟ لماذا لا تقولان لها الحقيقة؟، إن حســـن لم تعد تشتاق إليها كالسابق.

2

مضى أكثر من شهرين ووالدتها لم تلحق بهن بعد كما وعدتهن "قولو لأبوكن بس اشحن الغسالة والجلاية بلحقكن" كانت جملتها الأخيرة لهن وهي تودعهن في المطار.

يقضي والدها كل الليل خارج المنزل. في غيابه يشعرن بالخوف. يبدو منزل جدها كمنزل مهجور بعد أن أخذت خالتي والدتها (اللي وجهن بيقطع الرزق من البيت) أغلب العفش الذي كان على حالة جيدة. رأته ديما بأم عينها عندما كانت تزور إحدى الخالتين. رأت الطقم الذي كان في الصالة وطربيزاته الرخام. لم يعد في منزل جدها سوى بقايا عفش قديم والثريا الكرستال التي حفرت خندقًا في وجه أختها شذا وبعض الكراسي والسرائر الصدأة المرمية في الحمام العربي.

في الليل عندما يعم الهدوء المنزل يسمعن بعض الأصوات في الحمام العربي تصاحبها حركة غريبة فيتخيلن أنه مسكون بالأشباح. من الخوف يتكتلن في السرير أمام التلفزيون القديم، شاشته مشوشة وتقلب باستمرار وخطوط سوداء تقطعها نصفين، لكن ذلك غير مهم المهم أن أصوات الممثلين والمذيعين تكسر ذلك الصمت الرتيب وتبث شيئًا من الطمأنينة في قلوبهن فتغفو أجفانهن بالتدريج إلى أن يستيقظن على صوت مفاتيح والدهن وهو يفتح باب المنزل. أول ما تقع أعينهن عليه كانت الشاشة المنقطة بالأبيض والأسود وتلك الوشة فيعرفن أن الساعة قد تجاوزت منتصف الليل.

"بابا تأخرت كتير" تقول له ديما بنبرة عتاب.

"كان عنا اجتماع بالمكتب" يجيبها.

في إحدى المرات وبعد أن اشتكين لوالدهن كثيرًا من تلك الأشباح أحضر والدها عمو أبو محمد الساعي حتى يفتش الحمام ويطمئنهن بأنه لا توجد هناك أية أشباح. عندما خرج من الحمام أخبرهم بأنه رأى آثارًا لوجود جردون وهو الذي يخرج في الليل ويصدر تلك الأصوات وهو يصطدم بالكراكيب المحشورة فيه.

أصبحن كلما عطشن أو شعرن بالجوع في الليل يمشين في الكوريدور إلى المطبخ وهن يمسكن بأيادي بعضهن البعض وما أن يسمعن أية حركة في الحمام حتى يركضن من جديد إلى السرير.

3

تجاوزت الساعة منتصف الليل بكثير ولم يعد والدهن وعندما اتصلن به في المكتب لم يرد أحد عليهن.

"ليكون صرلوا شي" علقت ديما بقلق.

"بركي لساتو بالإجتماع ما سمع التلفون، خلينا ننتظر شوي" ردت شذا.

مضت أكثر من ساعة وهن على هذه الحال ولم يكن أمامهن في هذه الساعة من الليل إلا جارتهن أم حُسن على الرغم من أن ديما كانت مترددة في البداية إلا أن خوفها على والدها من أن يكون قد حصل له مكروه دفعها للجوء إليها.

هدأت أم حُسن من روعها وطمأنتها بأنه سيعود ثم نادت على ابنتها أميرة وطلبت منها أن تصعد معها وتبقى معهن حتى يعود والدهن.

ما أن استلقين في السرير كي يعدن إلى النوم حتى خرجت أميرة من الغرفة إلى الصالة وطلبت مكالمة لبيروت وجلست بجانب التلفون تنتظرها.

ليتها طلبت من حُسن أن تصعد معهن بدلًا من أميرة فكرت ديما وهي تستلقي في السرير بجانب أختيها وتستمع لصوت أميرة الدافىء المهموس وضحكاتها مع خطيبها. في أعماقها كانت ديما تتمنى أن يحصل شيئًا ما يعطل تلك الخطوبة لتبقى حُسن وعائلتها في العمارة. على الرغم من أنها زعلانة من حُسن. لكنها لا تتخيل نفسها تمر من أمام باب بيت حُسن دون أن تكون موجودة فيه. يكفيها الفراغ الذي تركه غياب كميل..... هل ترك غيابها نفس الأثر في حياة كميل وحُسن، تفكر ديما وهي تتذكر كيف كانوا يستلقون في سريرها ليلة الوداع، كميل في المنتصف يضمهما هي وحُسن بذراعيه إلى صدره بقوة....

ما أن سمعت ديما صوت مفاتيح والدها حتى قفزت من سريرها.

"بابا وين كنت خفنا عليك"

"كنت بالاجتماع" رد كعادته.

"ليش في حدا بيعمل اجتماعات بهادا الوقت؟" سألته ديما بنبرة شك واستغراب.

4

صحراء مترامية الأطراف، تمسك ديما بيد أختيها شذا وسلمى ويمشين بجانب والديهما بخطوات ثقيلة وبطيئة وأرجلهم تنغرس في كثبان الرمال. تنظر ديما إلى والدتها وإذ بها قد عادت طفلة من جديد، تربط شعرها وراء ظهرها كذيل حصان يقفز خلفها وهي تمشي. ما أن يصلوا إلى منتصف الصحراء حتى يقفون أمام حفرة تستلقي والدتها داخلها بدون مقاومة وهي تنظر نحوهم بوداعة واستسلام ثم يقومون بردم الرمال عليها بأيديهم التي تتطاير منها الرمال هنا وهناك إلى أن تختفي تحت الرمال تمامًا. يديرون ظهورهم لها ويعودون من حيث أتوا. في طريق العودة تنظر ديما خلفها فتشاهد يد والدتها تخرج من الرمال وتلوح لهم برجاء بأن يعودوا، تشد يد والدها كي يلتفت للخلف لكنه يتجاهلها ويكمل طريقه إلى الأمام دون أن يهتز له جفن.

تصحو ديما بفزع من نومها، العرق يتصبب منها وقلبها يخفق بشدة، تبتلع ريقها وتبحث على سطح الكومودينا عن كأس الماء، تقع عيناها على الساعة القديمة الصدئة والتي تشير عقاربها الفسفورية إلى السادسة والنصف صباحًا، تشرب الماء وهي تنظر من شباك الغرفة فتلمح العجوز تقف في شرفتها. لم تعد تخيفها تلك العجوز. لم يعد يخيفها شيء إلا تلك المنامات التي تراها كل يوم كفيلم مرعب طويل. أصبح مجرد اقتراب موعد النوم يثير في نفسها الخوف.

ترفع نفسها قليلًا وتسند رأسها على مسند السرير الخشبي. سرير جدها وجدتها. سرير ثقيل وضخم لا يمكن زحزحته من مكانه وإلا أصبح هو الآخر في منزل إحدى خالتي والدتها. لم يترك مكانًا في ساقيها إلا وملأهما بالبقع البنية والخضراء بأطرافه البارزة التي ترتطم بها كلما صعدت ونزلت من عليه. كل شيء في هذا المنزل ثقيل لا يمكن زحزحته من مكانه حتى الهواء.

يتسلل لسمعها صوت أغنية لديمس روسُوس آتية من الصالة. لا بد أن والدها قد استيقظ. تخرج من سريرها بسرعة إلى الصالة. لون الصالة برتقالي كما تحبه. كانت الشمس تملأ الصالة ووالدها يجلس بجانب الراديو الفيليبس القديم يدخن سيجارته ويرشف فنجان قهوته وهو يستمع لديميس روسوس يغني....

Hear the wind sing a sad old song. It knows I'm leaving you today. Please don't cry or my heart will break when I go on my way. Good by my love good by ....

وقفت عند باب الصالة تتأمله بقميصه الأزرق، أزرق بلون السماء الصافية وبنطاله الأسود، كم تحب هذين اللونين عليه وكم يتناسبان مع شعره الأسود ومع سالفيه الشائبين. في البداية لم ينتبه لوجودها لكنه عندما رآها تتقدم نحوه مد يديه مرحبًا بها فركضت وجلست في حضنه وأخذت تستمع معه إلى الأغنية. وضع يده على ظهرها وبدأ يفركه بحركة سريعة متتالية تعرف منها أنه يقول لها "أنا بحبك كتير".

"بابا، ماما إيمت جاية، طولت كتير" علقت ديما.

"اليوم بس ارجع من الشغل منحكي معها"

ما أن عاد والدها من الوظيفة حتى حضر طعام الغداء ثم طلب المكالمة ودخل إلى غرفته ليأخذ قيلولة الظهيرة ريثما يعاود السنترال الاتصال به.

فجـــأة رن جرس الهاتـــف فركضت هي وأختاهـــا إلى الصالة وجلســـن على الكنبة ينتظرن المكالمة بترقـــب، بينما خرج والدها مســـرعًا من الغرفة بسرواله الداخلي كعادته والعرق يتصبب منه. رفع الســـماعة بسرعة قائلًا "آلو، أنا معك، أنا معك... آلو.. آلو...

ميساء عم تسمعيني، علي صوتك ما عم اسمعك... ايمت رح تجي الولاد محتاجينلك كتير وأنا كمان.... لك يلعن أبو جلاية الصحون علـــى أبو الغســـالة الأوتوماتيك، عم قلك نحنـــا محتاجينك الأولاد اشتاقولك عم ينتظروك وأنا.... " ينقطع الخط. ما إن وضع والدهن ســـماعة الهاتف حتى نهض من مكانه وصرخ غاضبًا "اســـمعتوا إمكن شـــو قالت، خليكن شـــاهدين على حكيها قال ما بتجي لحتى تشتري الجلاية والغســـالة" ثم انسحب إلى الغرفة وارتدى ملابسه بسرعة وخرج من المنزل بعد أن صفق الباب وراءه بعنف.

علـــى غير العادة عاد والدهن مبكرًا في هذا اليوم وأخبرهن أنه وجد لهن مدرسة للغة العربية وطلب منهن أن يحضرن أنفسهن غدًا لتناول الغداء معها في سناك 22 كبداية للتعارف.

5

"خلي بالك من زوزو.. زوزو... زوزو النوزو كونوزو... اسمع غناها.. وافهم لغاها دي زوزو دي كلام هنعوزو صلي على الزين... صلي على الزين..."

كانت سعاد مدرسة اللغة العربية تقف عند ناصية الشارع بانتظارهم وهي تردد في سرها كلمات الأغنية التي حفظتها عن ظهر قلب بعد أن حضرت فيلم (خلي بالك من زوزو) أكثر من مرة لما وجدت فيه من تشابه بينها وبين شخصية زوزو في الشكل وفي ظروف الحياة... وفي إحدى هذه المرات حضرته بصحبة حبيب الله...

كانت في منتصف الثلاثينيات من عمرها، قصيرة القامة، ممتلئة إلى حد ما وذات بشرة بيضاء وشعر شديد السواد مرفوع وراء

رأسها على شكل شينيون للأعلى. تلبس نظارة شمسية تغطي ثلاثة أرباع وجهها فلا يبدو منه إلا شفتاها المكتنزتان المطليتان بروج أحمر غامق. وترتدي تنورة مكسي كارو أحمر بالأبيض وبلوزة قطنية حمراء.

كانت ديما تنظر بفضول من بعيد ناحية الناصية عندما رأت شفتين قرمزيتين مبتسمتين معلقتين في الهواء كشفتي ذلك القط العجيب تشيشير Cheshire في قصة أليس في بلاد العجائب والذي كانت لديه القدرة على الاختفاء تدريجيًا وهو على الشجرة ولا يبقى منه سوى شفتيه الضاحكتن معلقتين في الهواء.

"بابا، هي هية مدرسة العربي؟" سألت ديما وهي تشير بإصبعها نحوها.

"إيه بابا، نزلي إيدك عيب" نهرها والدها وهو يمسك بإصبعها حتى كاد يكسره.

جلست سعاد بجانب والدها بينما جلست هي وأختاها في الجانب المقابل.

بعد أن تم التعارف بينهن أخذت تدردش معهن عن المدرسة والدراسة وعيناها العسليتان تتوهجان كمصباحين يضيئان في الظلام كلما التقت عيناها بعيني والدهن.

أخذت ديما تتأمل والدها وهو يجلس مسترخ في كرسيه يشرب

البيرة الساقعة ويعبث بأصابعه الطويلة السمراء في قشور الفستق بعد أن التهمها كلها ويتابع سعاد بإعجاب وهي تحكي لهن كيف عملت مدرسة في الأرياف عندما كانت ماتزال طالبة في جامعة دمشق حتى توفر على والدها مصروفها، فمعاشه كان بالكاد يكفي لمصروف المنزل وإخوتها الستة. وكيف كانت تذهب إلى الجامعة بحذائها الأنيق ذي الكعب العالي وتحمل في يدها كيسًا تحتفظ فيه بجزمتها الكاوتشوك. وبعد انتهاء المحاضرات تركب الحافلة للذهاب إلى المدرسة فتخلع حذاءها الأنيق وتلبس مكانه جزمتها حتى تتمكن من المشي في الطرقات الوعرة المتربة وهي في طريقها إلى مدرستها...

من مدة لم تره ديما سعيدًا هكذا.... فكرت ديما... سعيدًا لدرجة أنه يهز قدمه بسرعة شديدة. لم تره على هذه الحال إلا عندما كان أصدقاؤه وأصدقاء والدتها يجتمعون عندهم في السهرات.

هي أيضًا تشعر بأنها سعيدة لأن والدها سعيد. ومن شدة انفعالها وقفت في مكانها تغني لها "يا أحلى حلوة بالمعمورة... ما بلاقي متلك ولا بالصورة... وبرمش عنيكي غرقتيني.. وما عندي مركب ولا شختورة...." كان أداؤها نشازًا وصوتها يعلو بالتدريج دون أن تشعر حتى استاء الناس من حولهم وأخذت شذا تشدها من فستانها لتجلس ثم دفع والدها الحساب وخرجوا.

في المساء كانت ديما تستلقي بجانب شذا تفكر لماذا تصرفت

بهذا الشكل وما الذي دفعها للغناء هل إعجابها بسعاد... أم قلقها منها. هل غارت منها لأن والدها كان ينظر إليها بإعجاب.

"كان دمي تقيل" سألت ديما شذا.

"كثير.. منيح اللي بتعرفي حالك"

"طيب لاحظتي شي؟"

"شي متل شو؟"

"كأنو بابا بحب سعاد"

"شو بعرفك؟"

"ما شفتيه شو كان مبسوط وطول الوقت عم يضحك وكل شوي بحط إيدو على خصرها"

"بجوز"

"طيب وماما؟"

"مابعرف"

"يا الله منك كل شي مابعرف مابعرف!".



الفصل الثامن



1

ما أن عادت ديما من مدرستها في أحد الأيام حتى رأت شاحنة تقف أمام مدخل العمارة محملًا عليها عفش منزل أم حُسن. ألقت عليها نظرة ثم دخلت العمارة فرأت حُسن تجلس على درجات المدخل وبيدها عروسة بطاطا مقلية.

"مسافرين؟" سألتها ديما.

"إيه، بس عم نستنى التاكسي" ردت حُسن.

جلست بجانبها تتأملها وهي تأكل عروسة البطاطا المقلية. فجأة التفتت إليها حُسن وهي تقطع جزءًا من العروسة وقدمته لها. قضمت منها ديما بشهية وقالت لها :

"حُسن قبل ما تروحي تعي نتصافا"

"ليش شوفي بيننا؟" ردت حُسن باستغراب.

"ليش كنت عم تتهربي مني وما عم تلعبي معي؟"

"ماما ما كانت عم تسمحلي"

"ليش؟" ردت ديما باستغراب.

"ما بعرف"

"يعني إنت لساتك رفيقتي متل الأول"

"لساتني" ردت حُسن وتعانقتا.

رحل كميل ورحلت حُسن. ومات زوزو، أخبرتها حُسن بأنه وجد مقتولًا في إحدى الحارات وبأنهم يقولون بأنه كان جاسوسًا. أما الملاك الأبيض فقد اختفى منذ مدة طويلة ولا أحد يعرف عنه شيئًا.

كانت ديما تجلس وحيدة على عتبة مدخل العمارة يحيط بها الفراغ والسكون من كل جانب وكأنها في صحراء قاحلة.

2

تتردد عليهم سعاد كل يوم لإعطائهن الدروس. ما أن تجلس حتى تخلع حلقتيها الكبيرتين وتضعهما أمامها على الطاولة. تفتح الكتاب تتفحص الدرس لدقائق معدودات وهي تأكل طرف شفتها السفلى ثم فجأة تقفل الكتاب وتقول لديما "قربي لعندي لشوف يا شاطرة" ما أن تقترب ديما منها حتى تشم رائحة مكياجها الكثيف، الخط الفاصل ما بين لون وجهها المطلي بالبودرة البيضاء ولون رقبتها القمحية، الفراغات داخل شعرها المنفوش للأعلى حتى تطول قليلًا، شفتاها الثخينتان المطليتان بروج أحمر كثيف، أظافرها الطويلة المقلمة المطلية بالأحمر وهي تمسك بالقلم وتخط عنوان الدرس "الجملة الفعلية" ثم تنطلق كالقطار تشرح الدرس وهي ترسم خطًا هنا وخطًا هناك وتكاد الصفحة تتمزق تحت قبضة يدها القوية.

تقرأ لها أبياتًا من الشعر العربي القديم وهي تنظر بطرف عينها إلى والدهن الذي يجلس معهن في الصالة يتشاغل بقراءة مجلة. تخرج نصف لسانها من فمها لتؤكد لديما على مخارج الحروف فتبدو لها وكأنها تمد لها لسانها ثم تبتسم لوالدهن فتضيق عيناها وتتوهج مقلتاها وتشعان كمصباحين. بعد ذلك تضع أصابعها في شعرها وتعيد نفشه للأعلى وتعود إلى الكتاب.

ديما كانت تسترق النظر من حين لآخر إلى والدها أثناء الدروس فتجده يتأمل سعاد وهي تشرح الدرس.

"بابا إنت ما عاد عندك إجتماعات؟" سألته ديما باستغراب في إحدى المرات.

"لأ بابا، الإجتماعات انتهت".

صدفة غريبة أن تنتهي اجتماعات والدها بمجرد أن بدأت دروس العربي تفكر ديما وهي تتأمل سعاد التي تعيد حلقتيها إلى أذنيها بعد انتهائها من إعطائهن الدروس ثم تخرج مرآة صغيرة وقلم الروج، تمشي به مرتين على شفتيها وتضغطهما على بعضهما البعض ثم تعيد الروج والمرآة إلى حقيبة يدها وترسم ابتسامة على شفتيها وهي تقول:

"أنا جاهزة مسيو حبيب الله" فينهض والدها من مكانه لتوصيلها إلى منزلها.

3

مع الوقت لم تعد سعاد تعود إلى منزلها بعد الانتهاء من إعطاء الدروس بل تبقى معهم لفترة متأخرة من الليل وأحيانًا يذهبون جميعًا برفقتها إلى سناك 22.

ديما كانت تعرف أن شذا هي المفضلة عند سعاد. بعد الدرس كانتا تنزويان في أحد أركان الصالة أو في الفرندة تتبادلان أطراف الحديث بهمس، وما أن تقترب ديما منهما حتى تلاحظ أن سعاد تغمز بطرف عينها لشذا فتغير مجرى الحديث.

"عن شو كنتو عم تحكو؟" تسألهما ديما بغيظ.

"مواضيع خاصة إنت لساتك صغيرة". تجيبها سعاد بنبرة حاسمة.

تعرف ديما أن لشذا أسرارًا وأن سعاد مخزن تلك الأسرار. فبعد أن سمح والدهن لهن بالتنزه في شارع أبو رمانة كل يوم في المساء، أصبحت شذا تكلم بعض الشبان الذين كانوا يلحقون بها معجبين. تقف في الشارع وتدردش معهم ببرود عجيب دون أن تفكر بأن والدها ممكن أن يمر بأي لحظة ويراها بينما تقف ديما بجانبها تأكل عرنوس الدرة المسلوقة وهي تصوب نظراتها الزاورة إلى الشبان وتهمس لشذا "يالله خلصينا بدنا نرجع على البيت". لكن شذا كانت تتجاهلها وتستمر بالحديث وتبادل أرقام التلفونات معهم. وحتى تتخلص شذا من تهديداتها لها كلما اختلفتا معًا كانت تخبر سعاد بأسرارها لأنها كانت تعلم بأن لها تأثيرًا كبيرًا على والدهن في حال اشتكتها ديما. فسعاد هي التي دافعت عنها عندما قرر والدهن قص كل بلوزاتها التي أتت بها من ألمانيا بعد أن عاد غاضبًا في أحد الأيام عندما كان يمشي بصحبتها وسمع تلطيشات الشبان لها في الشارع بسبب لحم بطنها وظهرها اللذين كانا يظهران من تحت بلوزتها.

"إيه شذا حلوة شو ما عملت رح تتلطش" قالت له سعاد وهي تهدئه وتقلب الجد إلى مزاح.

وهي التي أقنعت والدهن بأن مدرستهن سيئة السمعة وأن الشبان ينتظرن الفتيات على أبوابها أثناء الانصراف ونقلتهن إلى مدرسة

أخرى تعرف مديرتها وتثق بها. وافق والدهن على الرغم من أن مديرة مدرستهن كانت على علاقة صداقة معه ومع والدتهن وكل يوم قبل انصرافهن كانت تقف على رؤوس أصابعها لأنها كانت قصيرة القامة وتقول لها ولشذا بصوتها الدافىء الودود "أمانة سلمولي على الماما كتير ما تنسوا".

عندما يقترب المساء تملأ ديما المنزل بصراخها وهي تلعب وتركض وراء سلمى من غرفة إلى غرفة كالمجنونة حتى ينهكها التعب وتضمن أنها ما أن تضع رأسها على المخدة ستنام على الفور دون أن تتذكر كوابيسها الماضية، لكن ما أن تضع رأسها على المخدة وتغط قليلًا في النوم حتى تصحو بفزع على كابوس جديد.

4

في أحد الأيام جمعهن والدهن وسعاد في الصالة وفجرا أخيرًا تلك المفاجأة أمامهن "نحنا قررنا نتجوز".

"وماما؟!" سألت ديما على الفور.

"الماما هلق رح اتصل فيها وخبرها بقراري"

كانت ديما وأختاها يجلسن بجانب بعضهن البعض على الكنبة ينتظرن المكالمة التي ستحدد مصيرهن بترقب وبقلوب خافقة وعلى الطرف المقابل جلس والدهن بجانب التلفون يدخن سيجارته بتوتر بدا عليه وهو يهز قدمه بسرعة لم تحدث من قبل في حياته وبجانبه جلست سعاد.

كان الصمت والوجوم يخيمان على الصالة عندما رن جرس

الهاتف فجأة وانتفض والدها في مكانه، أطفأ سيجارته بسرعة ورفع السماعة وما أن سمع صوتها حتى أخبرها على الفور بأنه على علاقة بامرأة أخرى وبأنه لن يتخلى عنها وينوي الزواج منها.

كانت ديما تستمع إلى والدها وعيناها على يد سعاد وهي تمسد يد والدها لتهدئته وهو يكمل مكالمته "أنا آسف ميساء. إذا بتحبي ترجعي تعيشي ببيتك مع ولادك معززة مكرمة أنا جاهز اتحمل مسؤليتكن وبوعدك اصرف عليكن."

عند هذا الحد انتهت المكالمة. وعند هذا الحد كانت يد سعاد بأظافرها الطويلة الحمراء تقبض على يد والدها كالأخطبوط.

وضع والدها السماعة ثم نظر إليهن وقال بهدوء "شاهدين، إمكن اختارت الطلاق".

5

ما أن دخلت ديما وأختاها ووالدهن منزل أبو رمانة بعد أن خرج المستأجرون الروس منه حتى واجهتهم في الصالة صورة والدتهن المعلقة على الحائط وهي تعطي ظهرها للكاميرا وتدير رأسها بدلع ناحية العدسة. من المؤكد أن والدتهن قد نسيت ضمها إلى باقي الصور التي أخذتها معها إلى برلين وأن المستأجرين قد تركوها في مكانها.

في البداية ظنت ديما أو تمنت أن توقظ تلك الصورة حب والدها لوالدتها من جديد فيترك سعاد وتعود الأمور بينهما إلى سابق عهدها. لكن والدها خيب ظنها عندما دخل بعد قليل غرفتها وبيده الصورة.

"بابا، خلي الصورة عندك بالغرفة". قال لها ثم مضى.

من فرندة غرفتها لاحظت ديما أن الثكنة العسكرية قد أزيلت وأن جامعًا يبنى مكانها. ومن بعيد لمحت فندقًا جديدًا مايزال تحت البناء. كل شيء يتغير بسرعة فكرت ديما وهي تتأمل الحي من حولها.

فرحتهن بالعودة للمنزل لم تكتمل بعد أن طلب منهن والدهن أن يجهزن أنفسهن لمساء اليوم التالي لأنه سيصطحبهن معه إلى منزل سعاد ليطلبها من والدها رسميًا.

6

وافق أهل سعاد على استضافة شذا عندهم أثناء قضاء والدها وسعاد شهر عسلهما في روما. أما هي وسلمى فلم يكن أمامهما إلا دخول المدرسة الداخلية التي اقترحتها سعاد.

الفكرة راقت لديما بعد أن تخيلت كم الفتيات اللواتي ستقابلهن وكم اللعب والحديث الذي ستتبادله معهن، خاصة عندما تذكرت صديقتها إيزابيل والأيام التي قضتها معها. في المساء أخذت تجهز حقيبتها وحقيبة سلمى وكلها فضول وتطلع ليوم الغد وما سيحمله لها من مفاجآت.

في حي القصاع في إحدى الحارات وقفت هي وسلمى ووالدهما أمام بوابة حديدية كبيرة سوداء. رن والدها الجرس وبعد مدة سمعت

أقدام تقترب من البوابة. فتحت الراهبة البوابة ورحبت بهدوء بهم وطلبت منهم أن يلحقوا بها.

دخلوا إلى حوش صغير ومنه صعدوا الدرج إلى كوريدور عريض وطويل على أحد جانبيه عدد من الغرف والجانب الآخر منه يطل على الحوش الذي دخلوا منه وفي آخره باب كبير وراءه سكن الراهبات كما شرحت لهم الراهبة.

فتحت الراهبة باب إحدى الغرف التي تتوسط الكوريدور ودعتهم لدخول غرفة كبيرة فيها ثمانية أسرة. بجانب كل سرير كومودينا صغيرة. وفي صدر الغرفة شباك كبير يطل على حوش كبير تحيط به صفوف مدرسية على طابقين. تحت الشباك طاولة وكرسيان وبجانبه خزانة ملابس.

بعـــد أن ودعهما والدهمـــا، خرجت الراهبـــة وتركتهما ليرتبا أشياءهما في الغرفة.

عندما كانت ديما تضع ملابسها وملابس سلمى في الخزانة لاحظت هدوءًا غريبًا يخيم على المكان. فمنذ وصلت لم تر أية فتاة تصعد أو تهبط السلم أو تمشي في الكوريدور، فعزت ذلك للوقت، ربما الفتيات في المطعم يتناولن طعام الغداء كما كانت تفعل مع إيزابيل.

مـــا أن عـــادت الراهبـــة لتطمئن عليهمـــا حتى ســـألتها ديما "ميسور.."

"ميسور فيوليت" عرفتهما الراهبة باسمها.

"ميسور فيوليت وين البنات؟"

"أي بنات؟"

"اللي بالأوضة معنا"

أخبرتها الراهبة بأن قسم المدرسة الداخلية قد أقفل منذ مدة طويلة وبأنهن قبلوها هي وأختها بشكل خاص بسبب زوجة أبيهما التي كان لها معزة خاصة عند مديرة المدرسة.

في الليل نامت ديما وسلمى في سرير واحد. كانت ديما تعانق سلمى التي كانت تبكي خائفة وهي تردد "خايفة، بدي روح لعند ماما" وديما تهدئها وتطيب خاطرها وتذكرها بأن والدهما سيعود ومعه هدايا كثيرة لهما كما وعدهما.

ما أن غفت سلمى حتى بدأت ديما تستعيد تفاصيل هذا اليوم الذي بدا لها أطول يوم في حياتها وهي تحملق في زجاج النافذة أمامها تتأمل صفوف المدرسة بأبوابها المفتوحة فبدت لها في الظلام كأفواه كبيرة مفتوحة تكاد تبتلعها في العتمة. فأغمضت عينيها وهي

ترتجف من الخوف ثم دارت بجسدها ناحية الباب وانكمشت في سريرها وهي تحملق بزجاج الباب.

كانت عيناها شاخصتين على زجاج الباب عندما رأت خيالات تروح وتجيء بسرعة وسمعت همهمات غريبة حولها فاعتقدت أنها أشباح فتسمرت في سريرها والدماء تكاد تنشف في عروقها. فحتى لو صرخت بأعلى صوتها فلن تسمعها الراهبات وإذا هربت من الغرفة فالكوريدور مظلم ومخيف.

ما أن استيقظت في الصباح حتى بددت الشمس التي كانت تضيء الغرفة من كل ناحية كل مخاوفها ولم تعد تذكر متى وكيف غفت عيناها ليلة البارحة.

عندما حكت للميسور فيوليت عن الأشباح ضحكت وأخبرتها أن الغرفة المجاورة لغرفتها هي غرفة الصلاة وأن الراهبات هن من كن يمشين في الكوريدور.

كل يوم بعد تناول الإفطار كانت ديما ترتب الغرفة وتغسل غسيلها وغسيل سلمى، على الرغم من أن ميسور فيوليت طلبت منهما أن تغسل كل واحدة منهما غسيلها بنفسها وتنشره حتى يجف، لكن سلمى لم تكن ترضى أن تفعل أي شيء سوى ترديد "بدي روح لعند ماما" وكانت ديما تشفق عليها فتغسله لها وعندما تسألهما الراهبة تخبرها بأن سلمى هي من قامت بغسل ملابسها.

كانت الأيام تمضي مملة، كئيبة وطويلة. لاشيء مثير يحدث في حياتهما إلا عندما طلبت منهما الراهبة فرح المسؤولة عن المطبخ مرافقتها لمساعدتها في جلب البرغل من المستودع. مستودع كبير، جدرانه خضراء وأكياس الخيش التي تحتوي البرغل تستند على جدرانه الأربعة.

"كل هادا برغل ميسور؟" شهقت ديما مستغربة.

كل يوم كان الغداء عبارة عن برغل بالخضار أو برغل بجانبه خضار. أما على الإفطار فلم يكن مسموحًا لها ولأختها بأكثر من نصف رغيف لكل واحدة منهما. وعلى العشاء مثله.

"بس نص رغيف ميسور؟!" قالت ديما لميسور فرح معترضة، فطبطبت ميسور فرح على كرشها الصغير قائلة "بدنا ندوب هالكروش".

بين الغداء والعشاء كانت ميسور فرح تقدم لهما إصبعًا من الشوكولا من علبة الشوكولا التي اشتراها والدها لهما قبل أن يسافر.

في المساء كان مسموحًا لهما بالدخول لغرفة جلوس الراهبات والفرجة على التلفزيون حتى الساعة الثامنة مساء.

قبل النوم كان عليهما أن تغسلا أقدامهما كما طلبت منهما ميسور فيوليت رغم أن الماء كان باردًا في الحمام والبرغش يملأ

الحائــط حول حنفية المياه إلا أنهمـــا كانتا تضطران لفعل ذلك لأن ميسور فيوليت كانت تدخل كل يوم مساء إلى غرفتهما ترفع الغطاء وتتفحص أقدامهما.

يوم الأحد كانت شذا تزورهما. لكن تلك الزيارة لم تكن تكفي لتبديد الوحدة التي تعيشانها.

في أحد الأيام وبينما كانت ديما تنشر الغسيل طلبت من سلمى أن تساعدها بالنشر فرفضت. لا تعرف ما الذي دفعها لأن تشتكي سلمى لميسور فيوليت عندما مرت من أمامهما بالصدفة. ربما ضيق صدرها من الإقامة بالدير أو ربما من حدة الشمس. فجأة مسكت ميسور فيوليت سلمى من يدها وشدتها معها وهي تهددها بحبسها في غرفة الفئران. صراخ سلمى جعلها تندم على ما فعلت فلحقت بهما وهي ترجو ميسور فيوليت أن تعفو عنها وتتركها. لكن ميسور فيوليت لم تستمع لها. فتحت باب غرفة صغيرة ودفعت سلمى داخلها ثم أقفلته عليها. كان صراخ سلمى من داخل الغرفة يملأ الدير وديما منهارة في الخارج على حائط الغرفة تبكي...

7

عندما عادت ديما وسلمى إلى المنزل فوجئتا بأن والدهما لم يحضر لهما الهدايا التي وعدهما بها وعندما سألتاه عن السبب أخبرهما بأنه اشترى الهدايا بالفعل لكنه لم يستطع حملها معه على نفس الطائرة بسبب الحمولة الزائدة التي كانت معه. ووعدوه في المطار بأن يرسلوها له على طائرة أخرى.

بعد عدة أيام جمعهن والدهن في الصالة وأخبرهن بأن والدتهن اتصلت به وطلبت منه أن يرسل سلمى لتعيش معها ثم سألها وسأل شذا إن كانتا تحبان البقاء معه أم تريدان العودة لوالدتهما.

"أنا بفضل روح لعند ماما" أجابت شذا.

"أنا بدي ضل معك" أجابت ديما.

الفصل التاسع



1

بعد أن سافرت أختاها، أخبرها والدها بأنه وسعاد سيقومان بعمل تجديدات للمنزل وسيكون من الصعب أن تبقى فيه وبأنها ستعود لدير الراهبات ريثما تنتهي أعمال البناء.

وافقت ديما على مضض بعد أن أخذت عهدًا على والدها بأن يعيدها لغرفتها ما أن تنتهي الإصلاحات وبأن يجلب لها الهدايا إلى الدير في حال وصولها.

كانت ديما كل يوم تقف في الكوريدور وهي تحملق في الباب الحديدي الأسود منتظرة أن يرن الجرس وتفتح الباب وتجد والدها يقف وهو يحمل لها الهدايا التي وعدها بها. لكن الأيام مرت ووالدها لم يأت وديما لم تيأس، كانت واثقة بأنه سيأتي يومًا ما وهو يحمل الهدايا فوالدها لا يكذب.

في كل يوم بعد الإفطار تأتي إليها ميسور فيوليت لتعطيها درس الفرنسي. في بداية الدرس تكون ميسور فيوليت لطيفة وهادئة وعلى وجهها الأبيض الذابل ترتسم ابتسامة عريضة تكشف عن أسنانها المائلة لداخل فمها. ما أن تبدأ بشرح الدرس حتى يبدأ البصاق يتجمع في زاويتي شفتيها الرقيقتين. بعد ذلك وبعد أن تكون قد شرحت لها القاعدة عدة مرات دون فائدة ترجى منها تخرج ميسور فيوليت عن طورها فيصطبغ وجهها بلون خمري وتتناثر بعض خصل شعرها الأسود التي خرجت من تحت غطاء الرأس على وجهها وتلتمع عيناها وتبدأ بالصراخ فيتطاير بصاقها على وجه ديما.

في كل مرة كانت ديما تنجح بفهم الدرس وإعادة ميسور فيوليت لرشدها إلا في مرة واحدة عندما وصل الأمر بميسور فيوليت بأن تلطم بيديها على وجهها بدلًا من ضربها.

يوم السبت من كل اسبوع تنتظر ديما بلهفة قالب الكيك بالزبيب الذي تجلبه لها صديقتها كوليت. كوليت امرأة في الأربعين من عمرها صديقة للراهبات ومحبة للدير وتزورهن باستمرار. عندما تعرفت عليها أحبتها وأصبحت صديقتها.

في أيام الآحاد ترافق ديما الراهبات إلى الكنيسة الكبيرة التي تقع عند ناصية الشارع. تشعل الشموع لأفراد أسرتها وهي تدعو الرب

أن يستجيب لدعائها ويرسل لها والدها ومعه الهدايا كما استجاب في أحد الأيام لدعاء ميسور فرح عندما كانت تبحث عن ميسور فيوليت لأمر مستعجل ولم تجدها.

يومها كانت ميسور فرح تجلس في غرفة الصلاة تدعو الرب أن يرسل لها ميسور فيوليت عندما مرت ديما بالصدفة من أمام الغرفة وما أن لمحتها حتى نادت عليها وطلبت منها أن تذهب إلى الكنيسة وتخبر ميسور فيوليت بأنها تريدها لأمر مستعجل.

كانت الكنيسة تعج بالمصلين عندما كانت ديما تحاول أن تشق بصعوبة طريقًا بينهم لتصل إلى الصفوف الأولى حيث تجلس ميسور فيوليت إلا أنها لم تجدها فأرسلتها ميسور فرح إلى كنيسة أخرى.

قضت ديما المساء كله وهي تدخل كنيسة وتخرج من أخرى تبحث عن ميسور فيوليت دون فائدة وكأنها فص ملح وذاب.

عندما عادت ديما إلى الدير كانت أنفاسها قد انقطعت والعرق يتصبب منها والدماء ستتفجر من وجهها وما أن دخلت غرفة الصلاة حتى وجدتهما تجلسان بجانب بعضهما البعض تتهامسان.

عندما رأتها ميسور فرح قالت لها بدهشة.

"شايفة، الرب استجاب لدعائي وبعتلي ميسور فيوليت"

في أحد الأيام وبينما كانت ميسور فيوليت تعطي ديما درس الفرنسي قاطعتها ديما فجأة قائلة:

"ميسور الرب ممكن يستجيب لدعائي"

"إذا كان قلبك طاهر ممكن"

"شو يعني طاهر"

"يعني اللي ما بكذب، ولا بيسرق، ولا بيئذي حدا....."

وقبل أن تكمل ميسور فيوليت كلامها كان وجه ديما قد اصطبغ بالأحمر لأنها كانت تكذب. فكلما سألتها ميسور فيوليت إن كانت قد غسلت قدميها قبل النوم أم لا، كانت تهز رأسها بالإيجاب رغم أنها تكون قد اندست في سريرها بقدميها القذرتين.

2

استيقظت ديما من نومها بعد مشوار طويل في السيارة لتجد نفسها أمام دير حجري قديم يقع في واد تحيط به الجبال من كل جانب. أمام بوابته وقفت مجموعة من الراهبات بأزيائهن السوداء التي كانت تطير من شدة الريح.

استقبلتهن الراهبات بحفاوة. جلسن في الشرفة وتناولن حلوى من الأرز لونها برتقالي وبعد برهة ذهبت كل الراهبات للصلاة وبقيت وحدها في الشرفة.

كان كل شيء حولها بلون واحد، بلون الدير الحجري، الجبال الصخرية، الكثبان الرملية، لون السماء الملبدة بالغيوم، ويداها اللتان تمسك بهما سور الشرفة الحجري وهي تقاوم الريح. لكن الريح كانت شديدة تجعل شعرها يضرب بوجهها كالسوط وغطاء الكنبة

يرفعها من مكانها بقوة. فأغمضت عينيها واستسلمت للريح....

كانـــت تطير في الفضاء على غطاء الكنبة كالســندباد البحري على بساط الريح عندما سمعت فجأة صوتًا يغني "كده برضو ياقمر تواعدني على السهر... كده هو".

ما إن فتحت عينيها حتى رأت أمامها فتاة سمراء تكبرها بسنوات قليلة تربط شعرها الأسود الطويل بمنديل مزهر وتردد الأغنية وهي تمسح بلاط الشرفة.

"أنا قمر، إنت مين؟" قالت لها الفتاة عندما اقتربت منها.

"أنا ديما" أجابتها باستغراب.

"بتعرفيها هالغنية؟" هزت ديما رأسها بالنفي.

"يقبرني اللي بغنيها شو قمر" أجابتها وهي تكمل مسح الشرفة وتختفي في الجهة الأخرى من الشرفة.

في المساء وبعد أن انتهت شعائر الاحتفال الديني، أطلقت الألعاب النارية في السماء ورميت الدواليب المشتعلة بالنار من أعالي الجبال المحيطة بالوادي كجزء من الاحتفال. وامتلأت ساحة البلدة التي يطل عليها الدير بالناس من مختلف الأعمار والأجناس من أهل البلدة ومن اللذين توافدوا إليها لحضور الاحتفال. وتشابكت أيادي الشباب والشابات وهم يرقصون في حلقات على إيقاع الدبكة.

كانت ديما تقف مع الراهبات على درج الكنيسة تتفرج على الاحتفال عندما ظهرت قمر أمامها فجأة. كانت قد استبدلت ملابسها بملابس جديدة. سلمت عليها ودعتها إلى غرفتها داخل الدير.

غرفـــة صغيرة، جدرانهـــا مطلية باللون الأخضـــر الفاتح، بها ســـرير حديدي أبيض فوقه صورة كبيرة للســـيدة العذراء وشباك صغير في أعلى الجدار ينفذ منه الضوء. بجانب السرير كومودينا عليها الكتاب المقدس وعلى الجدار مقابل الســـرير خزانة صغيرة معلـــق عليها من الخارج ثوب الرهبنة لكـــن بلون فاتح ومعلق به مسبحة طويلة.

أخبرتها قمر بأنها تعيش وتخدم بالكنيسة وبأنها في يوم من الأيام ستصبح راهبة ثم رفعت فرشة السرير وأخرجت من تحتها صورة لهاني شاكر. وضعتها على شفتيها تقبلها وهي تدور في مكانها وتغني "كده برضو ياقمر تواعدني عالسهر... (ثم بدلع طفولي تضيف) كده هو".

3

عندما اصطحبها والدها في أحد الأيام إلى المنزل وجدت أن كل شيء فيه قد تغير الحمامات، الأرضية، والحيطان. فُتحت صالتا الصالون بالكامل على بعضهما البعض وهد الحائط الذي يفصل غرفة شذا عن الصالة لتصبح الصالة على الموضة على شكل حرف L بالإنكليزية كما أخبرتها سعاد.

عندما أوصلها والدها إلى الدير وقبل أن يودعها سألته ديما بقلق "بابا أوضتي كمان رح تهدوها؟". لكنه طمأنها بأن غرفتها لن يمسها أحد وبأنها ستعود لها كما وعدها عندما تنتهي أعمال البناء.

كانت أصعب اللحظات على ديما تلك التي تودع فيها والدها عند الباب الحديدي الأسود ثم تدخل غرفتها وحدها. لكن هذا الشعور

سرعان ما كان يتلاشى عندما تشغل مسجلتها على مسرحيتها المفضلة (ميس الريم) وتقف في منتصف الغرفة أمام صديقاتها الوهميات اللواتي يقتسمن معها الثمانية أسرة. تؤدي المارش العسكري كما يفعل الراقصون في المسرحية وتغني.....

.. مم.. مم.. مم... آخر أيام الصيفية.. والصبية شـــوية شوية.. وصلت عســـاحة ميس الريم وانقطعت فيهـــا العربية.... آخر أيام المشاوير في غيمة زرقة وبرد كتير.. وحدي منسية بساحة رمادية أنا والليل وغنية....

4

في الأيام التالية انشغلت ديما بالتحضير للزي المدرسي الجديد وشراء الأدوات المدرسية من حقيبة ودفاتر وأقلام فبعد أيام ستفتح المدرسة أبوابها وستمتلىء أخيرًا بالفتيات ممن هم في مثل سنها.... كانت ديما تفكر وهي تتأمل تلك الصفوف من شباك غرفتها.

في المساء بينما كانت تستلقي في فراشها تستعد للنوم سمعت أصواتًا آتيـــة من البهو خلف غرفتها ثم أنيرت إضاءته فتســلل الضـــوء إلى غرفتها عبر زجاج الباب الذي يفصلها عنه. عندما فتحـــت الباب فوجئت بشـــابتين تضعان حقائبهمـــا على الطاولة التي تتوســـط البهو وتخرجان منها بعض الأشياء وتضعانها في ثلاجة المطبـــخ المجاور للبهو. عرفت منهما أنهما طالبتا جامعة اســـتأجرتا غرفة في الدير.

بعد مضي إسبوع كانت الغرف الباقية قد امتلأت كلها بطالبات الجامعة وأصبح المكان يعج بالحيوية.

كانت ديما تصحو في الصباح من النوم تلقي تحية الصباح على صديقاتها الوهميات ثم ترتدي ملابسها وتتناول الإفطار وهي تقف عند الشباك تتأمل صفوف المدرسة التي تبدو لها في الصباح كأنها تبتسم مرحبة بالتلميذات. وعندما ترى صديقتها جانيت بشعرها الذهبي المعقود على شكل ذيلي حصان على جانبي رأسها تؤشر لها بيدها للنزول حتى تحمل حقيبتها وتنزل الدرج درجتين درجتين وهي تشعر بخفة وزنها خاصة بعد أن ذاب كرشها.

جانيت كانت تحسدها على حياتها تلك عند الراهبات وترجو والديها وميسور فيوليت للسماح لها بالبقاء مع ديما بعد انتهاء الدوام. وعندما تخلو المدرسة وتصبح ملكهما وحدهما تركضان في باحتها وتدخلان من صف إلى صف تقلدان المدرسين، وتسرقان بواقي الطباشير وتخفيان مساحات السبورات. وفي اليوم التالي تضيع نصف الحصة الأولى والمدرسة تبحث عن المساحة بينما هي وجانيت تتبادلان الضحكات المكبوتة.

في آخر الاسبوع تدعوها جانيت لقضاء اليوم معها ومع عائلتها. بيت جانيت صغير ولكنه نظيف ودافىء. والداها يجلسان مع أختها الصغرى في الصالة ويتحدثان بهدوء بينما تلعب هي مع جانيت

في الغرفة. وعندما يحين موعد عودتها إلى الدير كان والد جانيت يأخذهم جميعًا في مشوار بالسيارة ويشتري لهن السندويتشات الساخنة والعصير ثم يعيدها للدير.

في فصلها اشـــتهرت بأنها ابنة الراهبات وقصتها انتشرت بين الطالبات لأن كل مدرســـة كانت تدخل علـــى الفصل للمرة الأولى وتقرأ أســـماء الطالبات لتتعرف عليهن كانت تتوقف عند اســـمها وتسألها وهي تتأملها:

"مو إنت البنت اللي ساكنة بالدير".

في الفرصة تتجمع طالبات الفصل حولها ويسألنها بفضول عن سبب إقامتها بالدير. "بابا وماما مطلقين" تجيب فتنهال عليها الأسئلة واحدًا تلو الآخر. لماذا والدتها ووالدها مطلقان، لماذا تعيش والدتها في ألمانيا، هل والدتها ألمانية بالأصل، وأسئلة كثيرة غيرها عن علاقتها بزوجة أبيها وأبيها وكأنها الفتاة الوحيدة في كل المدرسة التي انفصل فيها والدها عن والدتها.

مـــع الوقت أخذت ديما ودون أن تشـــعر تضيف لقصص أهلها بعضًا مـــن خيالها. فتختار من المجلات صـــورًا تقصها وتلصقها على كرتونة حتى تبدو وكأنها صور فوتوغرافية وتستعرضها أمام صديقاتها على أن تلك المرأة الشقراء والدتها وتلك السيارة الصفراء ســـيارة والدتها الجديـــدة وهاتين الفتاتين الجميلتيـــن أختاها. كانت

التلميذات يستمعن لها مصدقات ومندهشات أمام جمال الصور.

بعد انتهاء الدوام ومن شباك غرفتها تقف تتأمل الفتيات وهن يركبن باصات المدرسة ليعدن إلى بيوتهن. فتتسائل بينها وبين نفسها ما الذي أتى بها إلى هذا المكان ولماذا لا تشبه حياتها حياة جانيت... لكن رغم ذلك لم يخطر في بالها في يوم من الأيام أن تعود لبرلين لأنها كانت تعلم أن برود والدتها معها أشد من برود هذه الغرفة.

في نهاية الإسبوع يمتلىء البهو بضجيج طالبات الجامعة جاراتها. يمسحن غرفهن والبهو وهن يستمعن لأغاني عبد الحليم ويرددن معه.

"أهواك واتمنى لو أنساك وانسى روحي وياك وان ضاعت يبقى فداك لو تنساني.. وانساك وتريني بانسى جفاك واشتاق لعذابي معاك وألقى دموعي فاكراك أرجع تاني....."

بعد ذلك تبدأ أصوات السيشوار بالانتشار وهي تختلط بأصوات ضحكاتهن ومشاكساتهن لبعضهن البعض. تفتح ديما باب غرفتها وتطل عليهن في البهو فتجدهن يجلسن حول الطاولة، واحدة تلف للأخرى شعرها والأخرى تزيل الشعر عن جسدها بالسكر وتلك تدهن أصابع يديها وقدميها بطلاء الأظافر وتلك تضع مكياجًا لزميلتها وهذه تحمل مرآة وتنتف حواجبها. ما أن يرينها تمد رأسها

حتى يدعينها لمشـــاركتهن. فتجلس بينهـــن بينما تقوم واحدة بطلي أظافرها والأخرى تسرح لها شعرها.

"شو حلو قميص نومك من وين؟" تسألها إحدى الفتيات.

"من ألمانيا" تجيبها وهي تزهو بنفسها.

في المساء يخرجن من الدير للتنزه في شوارع القصاع. أما هي فتقف عند باب الدير تنتظر والدها حتى يأتي ويصطحبها للمنزل لقضاء يومي السبت والأحد معه بعد أن انتهت أعمال البناء.

5

تقضي النهار وحدها في المنزل تتجول فيه وهي تتأمله كيف انقسم إلى جناحين تفصلهما الصالة. جناح فيه غرفتها والفرندة والمطبخ وحمام صغير وجناح فيه غرفة والدها وسعاد وحمامهما.

تقف أمام باب غرفة والدها تتأملها. والدها قد نبه عليها مرارًا بألا لا تدخلها لكنها دخلتها في غيابهما عدة مرات وفتحت أبواب الخزانة والأدراج وجربت أحذية سعاد بكعوبها العالية أمام المرآة عدة مرات إلى أن التوت قدمها ووقعت من طولها في إحداها.

أغرب الأشياء التي وقعت عيناها عليها في إحدى المرات وجعلتها تشعر بالذعر ولا تدخل الغرفة مرة أخرى كانت تلك الشدة اللعينة (أوراق اللعب) التي وجدتها في درج كومودينة سعاد. في البداية استعصى عليها فتحها لكنها تمكنت من فتحها ووقع

منها ورق الشدة وافترش الأرض تحت قدميها. عندما نظرت إلى الورق في البداية لم تفهم شيئًا من هذه الصور الغريبة التي ظهرت خلفه لكنها ما إن دققت النظر فيها حتى فهمت أنها (صور بورنو) فأغمضت عينيها على الفور ولملمت الورق بسرعة كيفما اتفق وأعادت الشدة إلى مكانها قبل أن يكتشف أمرها ويداها ترتعشان من الخوف.

عندما تعود سعاد من وظيفتها تدخل إلى المطبخ على الفور لتحضير الأكل وتنادي عليها لتساعدها لكنها ترفض دخول المطبخ لأن رائحة اللحمة المسلوقة تجعلها تشعر بالغثيان وسعاد لا تطبخ بدون لحمة فهي تحب اللحوم وتأكل نصف اللحمة وهي تقف أمام الغاز تنتظر نضج الطبيخ.

عندما يعود والدها يدخل من باب المنزل إلى المطبخ يعانق سعاد من ظهرها ويقبلها من رقبتها وهو يخبىء لها هدية صغيرة وراء ظهره.

بعد الغداء بينما والدها وسعاد يأخذان قيلولة الظهيرة في غرفتهما، تجلس في غرفتها بعد أن تتأكد من إغلاق الباب جيدًا وتعري الباربي وزوجها وتجعلهما يستلقيان فوق بعضهما البعض وهما يقبلان بعضهما من الشفائف.

عندما يصحو والدها من النوم وهو في طريقه للمطبخ ليشرب

الماء يسمع أصواتًا غريبة في غرفتها فيفتح الباب فتقفز بفزع من مكانها:

"سامع أصوات افتكرت في حدا بغرفتك"

"هية أنا بابا عم احكي مع لعبي"

في المساء يمتلىء المنزل بأصدقاء والدها الجدد. وجوه جديدة لم تعرفها من قبل جميعهم من طرف سعاد. يجلسون في الصالة متربعين على الأرض المفروشة بالموكيت الأخضر الجديد بدلًا من السجاد الأفغاني الذي باعه والدها. يشربون البيرة والعرق والويسكي ويتناولون المزات وهم يستمعون إلى اسطوانة لفيروز في البيكآب الجديد الذي اشتراه والدها مؤخرًا.

إذا كان ذنبي أن حبك سيدي.... فكل ليالي العاشقين ذنوب.. أتوب إلى ربي... أتوب إلى ربي وإني لمرة يسامحني ربي إليك أتوب.....

بروحي يا تلك الأرض ما أطيب الربى وما أحسن المصطاف والمتربع وأذكر أيام الحمى ثم أنثني على كبدي من خشية أن يتصدع.....

كانت ديما تتأمل والدها مستغربة وهو يستمع بنشوة إلى الأغنية.... منذ متى يحب والدها صوت فيروز لطالما سمعته ينتقد صوتها أمام أصدقائه القدامى قائلًا بأنه ممل ولا حياة فيه....

"بابا، بس إنت ما بتحب فيروز" علقت ديما.

طبطب والدها على ظهرها دون أن يجيبها أو يلتفت إليها وربما لم يسمعها. كان يستمع بإعجاب إلى سعاد وهي تشرح لهم أبيات الشعر...

وحدها فقط لم تكن تستمع لها. كانت تتأمل بطنها المنفوخ..... أيام قليلة وسيخرج هذا البيبي من بطنها ويحتل غرفتها..... غرفتها التي كذب والدها عليها ووعدها بأنها ستعود إليها وخلف بوعده، كما كذب وأخبرها بأن الهدايا ستصل بالطائرة ولم تصل حتى الآن....

"بابا إيمت فيي ارجع لغرفتي" سألته ذات مرة.

"هلق صعب بابا، أنا وسعاد منشتغل طول اليوم ورح تضلي لحالك بالبيت"

"أنا هونيك كمان لحالي" أجابته.

"معك الراهبات" أجابها.

"بابا صدقني حتى لو ما شفتك كل النهار، بكفيني شوفك قبل مانام لحس إنك جنبي"

في النهاية أقفل والدها الموضوع وهو يجيبها بنزق بأنه لا يستطيع في الوقت الحالي.

بينما كانت غارقة في أفكارها تلك وضع والدها يده في ظهرها وأخذ يفركه بحركة سريعة كما كان يفعل في السابق. حركة يده باتت تثير أعصابها لأنها كانت تعلم أنها لم تعد تعني "أنا بحبك" بل أصبحت مقدمة لوداعها.

تنظر إلى ساعة يدها. عقاربها تشير إلى السابعة مساء. حتى الآن لم تعتد على العودة للدير. حتى الآن ينقبض صدرها كل يوم أحد في الساعة السابعة مساء. وأحيانًا ينقبض وهي ما تزال تنتظر والدها عند باب الدير لاصطحابها للمنزل بمجرد أن تتذكر أنها ستعود في مساء يوم الأحد في الساعة السابعة مساء.

دفعت يده عن ظهرها بعنف وهي تنهض من مكانها لتحضر حقيبة مدرستها.

"قنفذ" قال لها وهو ينظر إليها منتشيًا بالموسيقى وكأس الويسكي بيده. من مدة وهو يناديها بالقنفذ مداعبًا ومتجاهلًا سؤالها عن سبب غضبها.

"مالي قنفذ" قالت له بصوت مخنوق تنحبس فيه الدموع وخرجت من المنزل بسرعة قبل أن تنفجر في وجهه أمام ضيوفه وتصرخ بأعلى صوتها بأنها من حقها أن تعيش في منزلها مثله ومثل سعاد ومثل البيبي الذي في بطن سعاد.

"ما في بوسة للبابا" سمعته يناديها وهي تهبط درجات السلم لكنها تجاهلته وأكملت طريقها.

ما أن ركبت التاكسي وسار بها حتى نفرت الدموع من عينيها "شو عمو خير فيكي شي" سألها السائق وهو ينظر من المرآة إليها. هزت رأسها بالنفي ومسحت دموعها وأشاحت بوجهها عنه وهي تنظر من الشباك.

وصل التاكسي إلى حي القصاع وكان الشارع يضج بالمارة، أم تمسك بيد ابنتها وتقطع الشارع، أب وأم وأولادهما يقفون عند بائع العصير، عائلة أخرى تقف أمام إحدى واجهات العرض، شلة من الفتية والفتيات يخرجون من النادي وأصوات قهقهاتهم تملأ الشارع...... عندما وقف التاكسي أمام الباب الحديدي الأسود تسمرت ديما في مكانها وهي تعانق حقيبتها وأجهشت بالبكاء.

أكمل السائق طريقه وأخذ يلف بها في شوارع القصاع إلى أن توقفت عن البكاء ثم دعاها لشرب كأس من العصير.

عندما ودعها أمام باب المدرسة نظرت إليه بعينين ممتلئتين بالامتنان وشكرته بحرارة.

الفصل العاشر



1

في نهاية العام الدراسي لم تصدق عينيها عندما وجدت والدها يقف عند باب غرفتها مع ميسور فيوليت وهو يطلب منها أن تحضر حقيبتها لأنها ستخرج من الدير وتعيش معه.

"عنجد بابا" قالت له بفرح فهز رأسه بالإيجاب مبتسمًا وهو يطبطب على كتفها.

"يعني لساتك بتحبني"

"في أب ما بحب بنتو". أجابها مبتسمًا.

"بابا وهبة كمان رح تجي تعيش معنا"

"لأ"

منذ ولدت هبة وهي تعيش عند جدتها. عندما سألت سعاد عن السبب أخبرتها بأن والدها لا يحب الأطفال وصوت بكائها يثير أعصابه.

قبل أن يصطحبها والدها إلى المنزل أخذها إلى السوق واشترى لها بنطلون جينز وبلوزة وحذاء هدية لها لأنها نجحت في دروسها وانتقلت إلى صف أعلى.

عندما وصلت إلى المنزل ركضت نحو سعاد وسألتها رأيها في ملابسها الجديدة التي ارتدتها وهي ماتزال عند البائع. وعلى الرغم من أن سعاد أبدت إعجابها بالملابس فإنها نصحتها بأن تقفل أزرار الياقة حتى لا تظهر منها عظمتا رقبتها الكبيرتان.

بعد عدة أيام من استقرار ديما في المنزل لاحظت أن أشياء كثيرة باتت تثير أعصاب والدها وليس فقط صوت هبة. فعندما زارهم المحامي في أحد الأيام ليسلم لوالدها الإيجار السنوي لبعض حصصه في سوق الحميدية من الدكاكين والحيطان والشِشمة سألته "بابا شو يعني شِشمة" فانفجر فجأة في وجهها أمام المحامي وطلب منها أن تسكت وتدخل غرفتها.

بعد أن باع والدها أغلب ما ورثه عن والده تبقت له تلك الحصص التي يصعب بيعها لاشتراك عدد كبير من الورثة فيها. أما إيجارها

السنوي فلم يعد يساوي شيئًا خاصة بعد أن يقتطع منه المحامي أتعابه لقاء تحصيله لها.

في المساء وعلى الرغم من أنه شعر بغلطته ودخل إلى غرفتها وصالحها وأخبرها بأن الشثمة هي تواليت عربي موجودة في أحد الخانات في سوق الحميدية وله فيها حصة إلا أنها باتت تشعر بأن عودتها إلى المنزل هي السبب في توتر أعصابه.

في المساء عندما تذهب سعاد لإعطاء دروس العربي الخصوصية لتلامذتها تنزوي ديما في غرفتها ترسم أو تتفرج على التلفزيون بينما يذرع والدها أرض الصالة جيئة وذهابًا وبيده كأس الويسكي.

عندما لفتت سعاد نظره في إحدى المرات إلى أنه يكثر من الشرب أجابها بأنه يسكن له آلام ظهره.

2

طارت من الفرح عندما أخبرها والدها في أحد الأيام بأنه ينوي اصطحابها معه إلى سوق الحميدية لزيارة عمه الساعاتي. فقد مضى وقت طويل منذ زارته آخر مرة وأكلت عنده بوظة عربي بالفستق. كان ذلك قبل زواج والدها بسعاد. منذ ذلك الحين لم تر أيًا من أقرباء والدها أو أصدقائه القدامى. والدة سعاد هي الوحيدة التي تقوم بزيارتهم كل اسبوع ومعها أختها الصغرى هبة.

والدتها امرأة بسيطة محجبة عندما تعتب سعاد على والدها لأنه لا يقوم بزيارتها تجيبها "أبوك ما بدوس بيت فيه منكر"

"هية كاسة حليب ياحماتي، تجربي؟" يجيبها والدها وهو يضحك وبيده كأس العرق.

أما أصدقاء والدها القدامى فقد أخبروه بأنهم لن يدوسوا منزله حتى تعود والدتها وتعود الأمور إلى نصابها. هكذا سمعت ديما والدها في أحد الأيام وهو يشتكي منهم لصديقه الوحيد الشركسي الذي يعمل معه في الوظيفة والذي بقي على علاقة طيبة معه حتى الآن. حتى الجيران أخذوا موقفًا من والدها وسعاد ولم يقم أحد منهم بزيارتهما أو المباركة لهما. وعندما قابلت جارهم أستاذ الفيزياء وزوجته بالصدفة أمام باب المنزل في إحدى المرات تجاهلاها ودخلا منزلهما دون أن يلقيا التحية عليها ودون أن تعرف ما ذنبها.

عندما خرجا من باب العمارة أخبرها بأنهما سيستقلان الباص بدلًا من ركوب السيارة كنوع من التغيير.

"عنجد بابا" أجابته فرحة.

ما أن رآهما العم حتى أزال العدسة من على عينه ولف الفوطة البيضاء التي كانت مفرودة على حجره بحذر حتى لا تقع منها أجزاء الساعة المفكوكة وخرج من وراء طاولته سلم عليهما بحرارة وأدمعت عيناه وهو يقبلهما ثم أخرج كمية من البنبون ووضعها في يدها. وطبعًا لم ينس أن يقدم لها البوظة العربي بالفستق.

كانت صحته قد تراجعت بعد أن أصيب بجلطة في قلبه وأخبرهما

بأنه عاد ليسكن في بيت العائلة القديم في حي الكلاسة لقربه من دكانه.

بعد أن أكلت البوظة خرجت تتفرج على الساعات المعروضة في الواجهة وبينما كانت تتنقل بنظرها من ساعة إلى ساعة رأت من خلال الزجاج يد العم تمتد بمبلغ من المال لوالدها. عندما اقتربت من الباب سمعت والدها يشكره ويقول له:

"أول ما بيتأمن معي المبلغ برجعلك ياه"

فهمت ديما أن والدها يمر بأزمة مالية وأنه لا يمتلك حتى ثمن بنزين السيارة.

3

كان والدها يذرع الصالة جيئة وذهابًا بغضب وهو يحمل كأس الويسكي ويحكي لسعاد كيف استدعاه مديره اليوم ليلفت نظره إلى أن ملابسه وشعره وسوالفه لا تليق بموظف في الدولة.

فعلًا مديره على حق فكرت ديما وهي تتأمل والدها..... فمنذ أن عاد من رحلته الأخيرة إلى أوروبا وهي تلاحظ بأنه يرتدي بدلات زاهية الألوان ويطيل شعره مثل البنات حتى تجاوز ياقة قميصه. أما سوالفه الفضية فكانت قد وصلت لمنتصف خديه حسب موضة السبعينيات.

عندما جاء في المرة الأخيرة إلى مدرستها ووقف مع مدرسة الفرنسي الشابة الجميلة ليسألها عن مستواها في الفصل، لاحظت ديما كيف كانت المدرسة مرتبكة... خداها محمران وعيناها

الزرقـــاوان تلتمعان وهي تتحدث إليه. حتـــى زميلاتها في الفصل تجمعن عند الشباك يتفرجن عليه وهن يعلقن بإعجاب "هادا أبوك!.. كتير حلو بيشبه الممثلين".

منذ ذلك الوقت ومدرسة الفرنسي تعتني بها بشكل لافت للانتباه وترسل معها في آخر الدوام سلامها إليه.

تتقصد ديما أن توصل سلامها إلى والدها أمام سعاد، فيبتسم والدها ويطأطأ رأسه بخجل، أما سعاد فلا تهتم وكأنها لا تغار على والدها. سمعتها ديما في إحدى المرات بعد أن عادت من شهر العسل وهي تحكي لشلة أصدقائها كيف كانِ والدها ينظر بإعجاب إلى فتاتين من بين مجموعة من عارضات الأزياء كن متواجدت في مطار روما، فاقتنصت فرصة بحثهما عن طاولة ودعتهما لينضما إلى طاولتهما لتتثبت له أنهما عن قرب شـــديدتا النحافة وبـــدون أثداء. طبعًا أمام ثديي ســـعاد الكبيرين فأي ثديين في العالم سيبدوان صغيرين....، تفكر ديما وهي تتأملها كيف تجلس بالســـوتيان والكيلوت الأسودين بـــدون خجل بعد أن باتت تقلد والدها. جســـدها مكتنز ولحمه قاس وبطنها الأبيض الكبير يندلق فوق سروالها بعد أن زاد وزنها بشكل ملحوظ في المدة الأخيرة.

"سعاد بكفي أكل صرتي سمينة، بتعرفيني ما بحب النسوان السمان"

يعلق والدها وهم يتناولون طعام الغداء وطبق سعاد يمتلىء بأنواع الطعام التي تجيد طبخها بامتياز.

"معك حق حبيبي" تجيبه سعاد وتعده بأن تخفف أكلها وتنزل وزنها لكنها في كل مرة تحاول ذلك كانت تفشل وتعود إلى الأكل بشراهة أكثر من المرات السابقة.

"أنا بعرف مين الموظف الحقير البعثي اللي رفع فيني تقرير" قال والدها لسعاد وهو ما يزال يذرع الغرفة جيئة وذهابًا وبين أصابعه سيجارته وبيده كأس الويسكي.

كان والدها متأكدًا بأنه ذلك الموظف الذي لمّح له في أحد الأيام برشوة كبيرة مقابل وضع توقيعه بالموافقة على ملف الجامع، نفس الجامع الذي بني مقابل منزلهم وكان آيلًا للسقوط وغير مطابق للمواصفات فرفض والدها.

"بدي استقيل" علق والدها.

"وشو بدك تشتغل يا حبيبي" تسأله سعاد بهدوء وهي تبتسم له.

"بفتح مكتب محاماة" أجابها.

تكتم ديما ضحكتها التي كادت تنفجر. فقد سمعته في أحد الأيام يقول لسعاد إنه لم يتجه للمحاماة بسبب لغته العربية الركيكة والتي رسب بسببها في البكالوريا ثلاث مرات لأنه عرب بطاطا الباء حرف جر وطاطا اسم مجرور.

سعاد لم تكن تجادله كثيرًا عندما تجده على هذه الحال. كانت تستمع له وتعرف أنه بعد قليل سيعود لهدوئه وتعود الأمور كما كانت.

4

عندمـــا رن جرس التلفـــون لم يخطر على بال أحـــد منهم بأنه سيحمل لهم مفاجأة. كانت والدتها تشتكي له من أن شذا باتت تدخن وتشرب البيرة وتهرب من مدرستها وأنها سترسلها له لأنها لم تعد تحتملها.

عندما وصلت شـــذا وفاتحها بالموضوع ســـالت دموعها على خديها وأنكرت بشـــدة وهو قرر فتح صفحة جديدة معها. لكنه بعد عدة أيام وبعد أن وجد أعقاب سجائر في الحمام وشم رائحتها قرر أن يفاتحها في الموضوع من جديد.

"بابا والله مو أنا" حلفت له ودموعها تسيل على خديها.

"كذابة.... كذابة طالعة لإمك" صرخ بوجهها فجأة ثم طلب منها

أن تغرب عن وجهه لأن وجهها البريء ودموعها الكاذبة يذكرونه بوجه والدتها.

بعـــد بضعة أيام حدثت مفاجأة جديدة عندما جاءت والدة ســـعاد تحمل أختها هبة مع حقيبة ملابسها وتخبر سعاد بأنها غير مستعدة بعـــد الآن لتحملها لأنها تعبت منها. وقبل أن تذهب ســـمعتها ديما تهمس في أذن ســـعاد بأن تصرف معاشــــها على ابنتها بدلًا من أن تصرفه على زوجها وابنتيه.

بعد أن كانت الغرفة لديما وحدها أصبحت أختاها تشاركانها فيها وبدأ صوتها يعلو بالصراخ والغضب كلما حشرت شذا ملابسها الوسخة التي تعشش بها رائحة الدخان في الدرج بين ملابسها النظيفة وكلما خربت لها هبة وهي تمشي بدراجتها على كل ما تجده في طريقها من رسومات وألوان وكاسيتات.

صوتها كان يضرب على أعصاب والدها فيندفع إلى غرفتها ويضربها دون أن يسألها عن السبب وكلما حاولت أن تشرح له يردد "وطي صوتك، وطي صوتك".

بعد أن يضربها يشعر بالندم ويأخذ عهدًا على نفسه أمام سعاد بأنه لن يشرب بعد اليوم ثم يفتح زجاجات العرق ويفرغها في البلاعة فتمتلىء رائحة المنزل باليانسون. وبعد عدة أيام يشتري زجاجات جديدة مبررًا ذلك بأنها تهدأ له آلام ظهرهِ.

5

أخذ والدها إجازة مرضية من وظيفته بناء على نصيحة الطبيب الذي طلب منه أن يستلقي أكبر قدر ممكن من الساعات على ظهره حتى يتفادى عملية جراحية خطيرة. وطلب منه أن يخفف من المشروب.

لم يستمع لنصيحة الطبيب. ينتظر حتى تذهب سعاد في المساء لإعطاء الدروس ويذرع الصالة جيئة وذهابًا وبيده كأس عرق كبير بدلًا من الكؤوس الصغيرة التي كان يشرب منها في الماضي وكل همسة أو حركة أو صوت يثير أعصابه إلى أقصى درجة.

عندما عادت شذا في إحدى المرات من عند الخياط الذي يقع محله أسفل العمارة واشتكت من أن الخياط قد أدخل أصابعه من تحت خصر البنطلون وهو يأخذ مقاسها ولمس جسدها بطريقة

لم ترتح لها، اندفع والدها من المنزل كالمجنون، ركب سيارته ولف بها بسرعة جنونية ناحية محل الخياط، صعد بها الرصيف حتى التصقت مقدمة السيارة بزجاج المحل وهو يهدده بأنه سيحطم له زجاج المحل إذا لم يخرج ويواجهه. عندما خرج الخياط من محله صرخ والدها "عم تتحرش ببنتي ياكلب" وخرج الجيران إلى الشرفات وتجمع الناس حوله لتهدئته.

وفي مرة أخرى عندما عادت شذا إلى البيت وهي خائفة وأخبرته بأن سيارة مرسيدس سوداء كانت تلحق بها طوال الطريق وفتح صاحبها الباب ودعاها للدخول إليها، خرج من البيت مسرعًا وديما تلحق به بمشاية المنزل واتجه إلى منزل الضابط الذي يسكن في العمارة المجاورة. لحسن حظه لم يكن الضابط موجودًا أخبرته الخادمة بأنه مسافر، لكنه أصر على أن يقابل زوجته ثم أخذ يصرخ بأعلى صوته "يا خانم جوزك عم يلحق بنتي بالسيارة ويغازلها وعم يطلب منها تركب معو". عندما سمعته زوجة الضابط خرجت على الفور بقميص نومها ولفافات الشعر ماتزال على رأسها وقالت له "مو عيب عليك تتهم زوجي، أولًا زوجي مسافر من اسبوع، وثانيًا زوجي إنسان محترم"

"معناتها عساكرو" صرخ والدها.

لا تعرف ديما لماذا يكره والدها هؤلاء العساكر وكلما استوقفه

أحدهم عند الحاجز وهو في السيارة ليتأكد من هويته يخرج والدها رأسه من السيارة ويصيح في وجهه بغضب "روح قول لمعلمك أنا ساكن هون من قبل ما إمو تنفضو". حتى صوت الأناشيد الدينية التي يبثها الجامع المقابل عبر الميكروفونات بعد صلاة العشاء يومي الاثنين والخميس باتت تضرب على أعصابه وعندما تبدأ يترحم على أيام الثكنة العسكرية وهو يذرع الصالة جيئة وذهابًا. وعندما تطول يخرج عن طوره ويندفع إلى الفرندة بسرواله الداخلي وكأس العرق في يده وهو يصرخ "حاجة بقى صرعتو مخنا".

في إحدى المرات رمى بساعة يده الروسية على أحد الميكروفونات الموجهـــة نحو فرندتهم. منذ زمن طويل ووالدها يريد التخلص من ســـاعته. وكلما نظر إليها يتذكر والده ويخبر ســـعاد بأن والده كان السبب في آلام ظهره عندما طلب منه أن يحمل له التلفزيون الجديد من السيارة إلى المنزل ومنذ تلك اللحظة وهو يعاني من تلك الآلام. بعد قليل رن عليه حارس الجامع الباب وأعاد له الساعة التي كانت ماتزال تعمل مما استفزه أكثر فأهداها له.

مـــا أن تفرغ زجاجات العرق حتى يرســـلهما إلـــى بقالية نورا ليشتريا له زجاجات جديدة وهو يلفت نظر شذا بأن تحمل الأكياس إلـــى صدرها وهي تصعد الســـلم حتى لا يرتطم بدرجات الســـلم وتتكســـر وتفضحه رائحة العرق أمام الجيران. لكن شـــذا تتنســـى

وترتطم الزجاجات بدرج الســلم وتتكســر وتمــلأ رائحة العرق السلالم. فيعاقبهما ويرسلهما مرة أخرى لبقالية نورا فيسلمهما البائع الزجاجات وهو يشفق عليهما من المشوار.

"هالمرة عمو انتبهي وإنتي حاملتيهن إصحك يتكسروا".

6

ما أن يسمع صوت ديما حتى يندفع إلى غرفتها يفتح الباب وهو يحدق بها "بابا ديما ماعم تدرس" تخبره شذا. فيطلب من ديما أن تحمل كتبها وتلحقه إلى الصالة. يفتح أحد الكتب ويسألها منه:

"ما عاصمة سورية؟" تقف أمامه كالبلهاء.

"ما بعرف" تجيبه. فيجن جنونه ويسألها أين تعيش فتجيب "بالشام" "والشام وين؟"

"هون" تجيبه.

"غبية"

"أنا مالي غبية" تجيبه بصوت عال.

"إنت غبية، وأختك غبية وإمك غبية وأنا... أنا أغبى واحد فيكن، كلنا أغبياء سعاد هية الوحيدة فينا اللي ذكية"

"لأ، سعاد...." قبل أن تكمل جملتها يرشقها بكأس الجين على وجهها فتغمضهما وتصرخ من الحرق المفاجىء الذي أصابهما. تأخذها شذا بسرعة إلى الحمام تغسل لها وجهها وهي تقفز بين يديها من الألم وهبة تلحقهما بدراجتها وتبكي بذعر.

في آخر الليل تسمعان صوته وهو يصرخ في غرفته ويهدد سعاد بالطلاق وبعد قليل يسمعان صوت المرآة تتهشم.

"كلكن انتو النسوان متل بعض"

"معك حق حبيبي كلنا متل بعض، ببوس إيدك، بوس رجلك إهدا كلشي بدك ياه بصير بس إهدا"

"ماعدا إمي. إمي أشرف وحدة على وجه الأرض. أشرف منك...."

"معك حق" تجيبه سعاد.

7

يســـمعها وهي تتهرب من ســـعاد وتجيبها "ما بدي آخد درس عربي" لا تعرف كيف سمع صوتها وظهر فجأة في وجهها بعد أن كان يستلقي على ظهره في غرفته.

"ليش عم تقلي أدبك على سعاد"

"ما بدي ياها تدرسني"

"هادا جزاتها، فوق ما عم تدرسكن، وفوق ما عم تصرف علينا كلنا، لعلمك سعاد أحسن من إمك"

"ما بسمحلك تحكي على ماما" تجيبه وهي تحدق فيه. يهجم عليها يضربها وتركض سعاد وشذا تخلصانها من بين يديه فتهرب إلى غرفتها وهو مازال يصرخ بها:

"روحي إنقلعي لعند إمك خليها ترجعك لمستشفى المجانين اللي كنت فيها"

"أنا مالي مجنونة، مالي مجنونة" تصرخ والدموع تنفجر من عينيها.

"أصلًا بحياتك ما رح تصيري رئيسة جمهورية هي القصة بدها تضل نقطة سودا بملفك متل ما كان جدك نقطة سودا بملفي".

8

تصحو في الصباح على آلام شديدة في بطنها. تجد سائلًا أحمر في سروالها فتشعر بالذعر وتبكي. لكن بفطرة الأنثى تعود لهدوئها وتعرف أنها الدورة الشهرية. حصل ذلك مع أختها شذا. تذهب إلى درج شذا تفتحه وتبحث عن الكوتكس (الفوط النسائية) فتجد كروز دخان كبير في عمق الدرج. تأخذ الكوتكس إلى الحمام تقلبه دون أن تعرف إن كان مكان اللاصق للأعلى أم للأسفل. تضعه كيفما اتفق وتعود لغرفتها. ما أن يراها والدها حتى يأمرها بالذهاب للمدرسة ويتهمها بالتمارض

تستلقي في المساء تحت غطاء السرير وهي تضع المسجل بجانب أذنها تستمع للموسيقى بعيدًا عن صوت هبة المزعج. عندما تطلب منها شذا أن تفتح كتبها وتدرس تزيل غطاء السرير وتصرخ بحدة:

"إنت ما دخلك فيني أنا بدرس لما بدي"

يصل صوتها إلى والدها فيندفع إلى الغرفة...

"ليش عم تصرخي على إختك؟" يسألها والدها.

"ما صرخت عليها" ترد بصوت عال.

"وطي صوتك يا قليلة أدب"

"أنا مالي قليلة أدب"

عندما هجم عليها لضربها شعرت هبة بالذعر فتحركت بدراجتها ولسوء حظها وقفت بطريقه فما كان منه إلا أن حملها هي ودراجتها ورماهما في الهواء غير أن شذا ركضت بسرعة وتلقفتها قبل أن تقع على الأرض وانزوت بها بعيدًا عنه. وعندما وجدته ديما يقف أمامها ارتدت إلى الوراء بخوف وهي تحدق فيه بذعر، لكنه بدلًا من أن يضربها أخذ يضرب نفسه ويشد شعر صدره وهو يصرخ" بعرف ما بتحبوها، بعرف بدكن إمكن، بس ما فيني طلقها، ما فيني أخرب بيت تاني بعد ما خربت الأول، ليش ماعم تفهموني ليش ماحدا عم يحس فيني. ليش.....".

منظره وهو يضرب نفسه والدماء النافرة مكان الشعيرات المنزوعة أثار شفقتها عليه فركضت نحوه وركعت عند قدميه وهي

تبكي "خلص بابا، الله يخليك خلص، ببوس إيدك لا تضرب حالك، اضربني أنا، خلص بابا بكفي الله يخليك بكفي".

لم يسمعها والدها. كانت شعيرات صدره تطير في الهواء وتقع عليها. كانت القلعة تنهار أمامها حجرًا حجرًا.

الفصل الحادي عشر



1

تجلس في الصف مثل الأطرش بالزفة لا تعرف بأي درس أصبحن أو عن ماذا تتحدث المدرسة. صورة والدها لا تفارقها. كان أسهل عليها لو أنه ضربها. ليته ضربها تفكر... ضميرها يؤنبها. تشعر بأنها السبب في كل ما جرى له.

تتأمل شباك غرفتها في الدير.... كم تفتقدها اليوم وتتمنى الرجوع إليها... تتذكر كم كانت سعيدة يوم أتى والدها لاصطحابها إلى المنزل.

"بابا لساتك بتحبني" سألته يومها.

"في أب ما بحب بنتو" أجابها.... كان يكذب.... لم يأت لاصطحابها لأنه يحبها وإنما لأنه كان عاجزًا عن دفع الأقساط

الشـــهرية لإقامتها فـــي الدير..... لو أنه لم يفلـــس.. لو أنه لم يأت لاصطحابها وبقيت في غرفتها في الدير، ربما كان الآن يحبها....

تنتفض في مكانها بفزع عندما تسمع صوت المدرسة تنادي عليها "ديما قومي جاوبي".

تقف في مكانها مطأطأة الرأس صامتة.

"بقطع إيدي إذا بتنجحي السنة يا ديما" تعلق المدرسة فتنفجر التلميذات بالضحك.

تنظر بطرف عينها إلى جانيت. هي الوحيدة التي لم تضحك عليها مع أنهما لا تتحدثان مع بعضهما البعض منذ دفعتها ديما بعنف أثناء اللعب بكرة السلة وخرمشتها من سواعدها دون سبب...... لا بل هناك سبب أو عدة أسباب.... فقد كانت تتمنى لو كان لديها عائلة دافئة كعائلة جانيت. لو كانت محبوبة من والديها كجانيت. لو كانت تنعم بالهدوء مثلها ولو كانت بشرتها صافية كالبلور كبشرة جانيت بدلًا من بشرتها التي أصبحت تمتلىء بالبثور الدامية...

في المساء تستلقي في غرفتها على السرير تحدق في سقف الغرفة لا تلوي على شيء. تعيد فتح جروح حبوب وجهها المتقيحة وهي تستلذ بشعورها بالألم حتى تسيل منهم الدماء.

"بكرة بصير وجهك كلو حفر وجور وما حدا بتجوزك" تعلق سعاد على بثورها.

"ومين قلك بدي اتجوز، أصلًا أنا بكره الرجال"

منذ متى تهتم سعاد بشكلها... تفكر ديما... ألم تعايرها من قبل بعظمتي صدرها الكبيرتين.... منذ متى تهم أمورها الآخرين وماذا سيحصل لو أنها شوهت بشرتها.... لا شيء.... أصلًا هي في الأساس قبيحة فما المشكلة أن تزداد قبحًا.....

2

تسمع صوت لهاث متقطع. تخرج من غرفتها فتجد والدها في الصالة يزحف على بطنه باتجاه المطبخ.

"بابا ليش ما ندهتلي؟"

"خليكي بغرفتك" يجيبها ببرود.

تركض إلى المطبخ تفتح الثلاجة وتخرج منها زجاجة الماء البارد وتسبقه إلى غرفته وتضعها له قرب فرشته الممددة على الأرض والتي بات ينام عليها منذ اشتدت آلام ظهره وفقد القدرة على المشي.

تتأمله وهو يزحف عائدًا إلى غرفته. أسفل قدميه شديد السواد وأظافره طالت واتسخت.

تجلس في الصالة المظلمة وحدها تبكي بصمت..... حتى الآن يكلمها بجفاء. حتى الآن لم يسامحها.....

3

لم يتبق على الامتحان سوى شهرين وهي تعرف بأنها لن تنجح ولن تستطيع اللحاق بزميلاتها في الفصل مهما حاولت. أساسًا لو فكرت بأن تبدأ لا تعرف من أين تبدأ وكيف.

إذا رسبت سيغضب والدها منها أكثر مما هو غاضب الآن وستثبت له بأنها غبية وتشمت فيها سعاد... كم تكرهها... هي السبب في كل شيء... لولاها لما طلق والدها والدتها... هي التي سرقته منهن.... وهي التي كرهته بها..... لولاها لبقي والدها يحبها.... تسيل دموعها وهي تحدق في السقف...

"ليش عم تبكي" سألتها شذا.

"لأنو بابا ما عاد يحبني"

"إذا درستي ونجحتي رح ينسى كلشي ويسامحك"

"ما رح اقدر انجح"

"إذا بتوعديني إنك تدرسي بعملك جدول للدراسة وبشرحلك الدروس وبتنجحي"

رغبتها الشديدة في أن تستعيد حب والدها جعلتها تنهض على الفور من سريرها وتحضر الكتب لشذا.

4

مع اقتراب موعد الامتحانات امتلأ المنزل بطلبة سعاد بعد أن قررت جمعهم عندها بدلًا من ترك والدهن لفترات طويلة وحده في المساء. يتحلق عشرة طلاب حول طاولة السفرة من بينهم أختها شذا.

يستلقي والدها على فرشته في غرفته ومن وقت لآخر يتلقى بعض الضيوف مثل عمه الساعاتي وبعض أقرباء سعاد وأصدقائهم وعمو أبو محمد الساعي الذي يجلب معه كيسًا من البصل ويدخل المطبخ يحضر لوالدها شوربة البصل لاعتقاده بأنها تشفي آلام الظهر.

ديما كانت تسعد بوجود الضيوف لأنهم الوحيدون القادرون على رسم ابتسامة على وجه والدها في هذه الأيام.

تحضر لهم الشاي وتدخل إلى غرفة والدها لتضيفهم. وهي تخرج يشكرها والدها وتشعر في كل مرة بأنه يقولها لها بدفىء أكثر من المرة السابقة، "شكرًا بابا"، تطير فرحًا عندما تسمعها وتنصرف إلى دروسها بحماس.

تستلقي بجانب والدها على الفرشة وهو يعلمها رسم خريطة سوريا. يبري بوزة قلم التلوين الأزرق على البحر الأبيض المتوسط وبقطنة صغيرة يمسح البرادة على الورقة فيزرق البحر وتتلاطم أمواجه. وباللون الأخضر، أخضر كمنديل صباح تظهر سلسلة الجبال الساحلية الممتدة على طول البحر. أما باللون الأبيض فيظهر جبل الشيخ بقمته البيضاء. يشبه البوظة العربي المزينة بالفستق الحلبي. يخبرها والدها بأن وراء قمته تقع مرتفعات الجولان المحتل.

عندما طلب منها قلمًا ليلون لها دمشق أو الشام كما تحب أن تسميها أعطته اللون المشمشي لأنها درست أن دمشق اشتهرت بصناعة كونسروة المشمش وهي تحبها كثيرًا، مممممم كم تشتهي عروسة مربى المشمش بالزبدة الآن.

في المدرسة أثناء المراجعة أصبحت ديما تشارك وباتت تعرف أن دمشق هي عاصمة سوريا. ترفع إصبعها في الصف بحماس وتجيب وبطرف عينها تنظر إلى جانيت لترى ردة فعلها إلى أن

التقت أعينهما في إحدى المرات وشعرت ديما أن الوقت بات مناسبًا للاعتذار لها. جانيت قبلت اعتذارها على الفور وابتسمت لها وأعارتها دفاترها لتنقل منه بعض ما فاتها من الدروس.

في المســـاء تتبادل هي وشذا صنع الشـــاي وهما تسهران على الفرندة تدرسان حتى طلوع الفجر.

"كيف بصير الواحد رئيس جمهورية؟" تسأل أختها شذا.

"شـــو بعرفني، اهتمي بدروســـك أحســـن" تجيبها بعد قليل من التفكير.

5

تعود من مدرستها سعيدة. تدخل إلى غرفة والدها وتحكي له بأنها شاركت في حفلة نهاية العام الدراسي باسكتش غنائي من مسرحية لفيروز. عندما أخبرته بأنه كان أفضل فقرة من بين كل الفقرات التي قدمت ابتسم لها سعيدًا واثنى عليها.

"بابا بتحبني؟".

لم يجبها "في أب ما بحب بنتو" كما كانت تتوقع. اكتفى بحضنها وفرك ظهرها بسرعة كما كان يفعل في الماضي. هذه المرة صدقته. كان يقول لها "أنا بحبك".

في الحقيقة لم يكن الاسكتش أفضل الفقرات. كان عاديًا جدًا وبعض زميلاتها نسين بعض الجمل منه لكنها كانت تكذب عليه حتى يحبها.

وهي خارجة من الغرفة نادى عليها مرة أخرى. كان قد نسي شيئًا مهمًا. عندما عادت إليه سلمها كرتًا كان قد وصل من والدتها من إحدى الجزر الإيطالية. تخبرها وتخبر شذا بأنها سعيدة جدًا وهي تقضي إجازتها السنوية برفقة أختهما سلمى وزوجها الألماني توماس.

الفصل الثاني عشر



1

عندما ذهبت إلى مدرستها لاستلام شهادة نجاحها توقفت فجأة أمام الدرج الذي يفضي لدير الراهبات. منذ تركت الدير لم تفكر بزيارته أو زيارة الراهبات مرة أخرى. لكنها الآن تفكر بأن تصعد وتصلي من أجل والدها. فلم يتبق له سوى أيام قليلة ويكون الجراح الشهير قد عاد من فرنسا ليجري له عملية في عاموده الفقري.

صعدت الدرج ومشت في الكوريدور وعندما وصلت إلى باب غرفتها سمعت بعض الضوضاء وأصوات بكاء أطفال. شقت الباب وأدخلت رأسها منه فرأت غرفتها وقد تحولت إلى حضانة أطفال بعد أن أزيلت منها الثمانية أسرة وميسور فيوليت تقف بين الصغار المتحلقين حولها بمراييليهم الزهرية اللون كالصيصان.

في البداية لم تعرفها، لكن ما أن قالت لها "ميسور أنا ديما" حتى

عانقتها وقبلتها وأخبرتها كم أصبحت جميلة.

"شكرًا" ردت ديما بخجل.

عندما سألتها ميسور فيوليت عن أحوالها حكت لها عن مرض والدها ثم اصطحبتها إلى غرفة الصلاة وأشعلت كل واحدة منهما شمعة له وجلستا تصليان له.

2

انقضى الصيــف وهي تلعب على دراجتها مــع أبناء الجيران حتى أصبحت الأســرع وبدؤوا يغتاظون منها كلما دخلوا في سباق وكسبته.

في إحدى المرات وبينما كانت تسبقهم على دراجتها غافلوها ولفوا من وراء ظهرها بالاتجاه المعاكس، وفجأة وهي تسير بأقصى سرعة لها وجدتهم قادمون على دراجاتهم أمامها وحتى تتفادى الاصطدام بهم انحرفت عن مسارها واصطدمت بأول عامود قابلها فتكسرت دراجتها ووقعت من عليها.

عندما عادت إلى المنزل بركبتها المشــقوقة وملابسها الممزقة ودراجتها المكســرة منعهــا والدها من النزول إلى الشــارع مرة أخرى.

لم تهتم ديما لجلوسها في المنزل كثيرًا، كانت المدارس قد أصبحت على الأبواب وكان عليها أن تفرز أدواتها المدرسية وتسجل ما ينقصها. شيىء تحب أن تفعله وتشتاق له. كم تشتاق لرائحة الدفاتر والتجليد والصمغ والممحاة والكتب الجديدة.

3

عندما عادت من المدرسة إلى المنزل في إحدى المرات وجدت والدها الذي كان قد تماثل للشفاء تمامًا يتجول في المنزل من غرفة إلى غرفة بصحبة ضابط وزوجته.

بعد أن خرجا أخبرها والدها بأنه وسعاد قد قررا بيع المنزل لهما.

"ونحنا وين رح نعيش؟"

"رايحين على السعودية"

"ليش؟"

"سعاد إجاها عقد عمل كمدرسة"

"وإنت؟"

"مبدئيًا رايح معها كمحرم، هونيك بدور على شغل"

بعد أن صمتت ديما قليلًا في محاولة لاستيعاب المفاجأة، تذكرت شيئًا ما.....

"بابا"

"نعم"

"شو يعني محرم؟!"

4

قبل سفرهم بأيام وهي تمشي في شارع أبو رمانة في طريق عودتها إلى المنزل شيىء ما دفعها للانعطاف باتجاه ساحة النجمة والدخول في الشارع الذي يقع فيه منزل جدها لتلقي عليه نظرة للمرة الأخيرة.

أمام دكانة النجــار توقفت. كان النجار قــد وضع لافتة جديدة مكتوب عليها أبو عبدو النجار وبجانب اسمه كتب رقم الهاتف. كان رقم هاتف منزل جدها. بالتأكيد حصل عليه من خالتي والدتها اللي وجهن بيقطع الرزق من البيت بعد أن ساومتاه على الأجر... غير مهم... المهم أنه حصل في النهاية على خط التلفون بينما لم تحصل هي على الحقيقة حتى الآن....

أبواب الشرفة في شقة كميل مشرعة، وجده يجلس فيها كما كان يجلس في السابق يضع يده على حافة الشرفة ويستند برأسه عليها

وهو يدخن سيجارته وبيده الأخرى يحمل فنجان قهوته.

بينما كانت تتأمله خرج إلى الفرندة شاب، شعره أجعد وبني اللون كشعر كميل وملامحه تشبهه إلى حد كبير. لا بد أن يكون هو وأن يكونوا قد عادوا بسبب الحرب الأهلية اللبنانية. كلم جده لثوان ثم ألقى نظرة على الشارع ودخل إلى الشقة مرة أخرى دون أن يلحظ وجودها.

كان صمت مطبق يخيم على الشارع وهي تمشي وحيدة مبتعدة عن منزل جدها عندما سمعت فجأة صوت والدتها يكسر هذا الصمت وهي تصرخ:

"صباح تعي شوفي الخسالة (الغسالة) صارت بنص الصالون"

"كنت نسيانة باب الحمام مفتوح" ترد صباح.

"يبعتلك حمى تسلق بدنك سلق، إلهي" تصرخ خالة والدتها بابنها......

"ميساء لا تنسي تحطي دبس الرمان للمحشي"

وصوت الملاك الأبيض وهو يشدو.... ياوردة الحب الصافي... تسلم إيدين اللي سقاك.... يا هل ترى.. يا هل ترى... إيه انكتب للفؤاد... شوك الضنى واللا عبير الوداد....

عندما شارفت على نهاية الشارع التفتت وراءها لكنها لم تجد شيئًا غير الفراغ والسكون وصوت زمامير السيارات.

المؤلفة في سطور

رولا عبيد

- خريجة المعهد العالي للفنون المسرحية - قسم الأدب والنقد المسرحي/ دمشق.

نشر

- نشرت قصصا قصيرة في جريدة البديل المصرية وأخبار الأدب وأخبار اليوم ومجلة العربي وحقوق الناس والعديد من المجلات الالكترونية وعلى مدونتها الخاصة (نزوة امرأة و قصص أخرى).

إخراج

- أخرجت مسرحية (ياسين وبهية) للكاتب المصري نجيب سرور. انتاج مسرح الهناجر في القاهرة.
- أخرجت مسرحية (الكونترباس) للكاتب الألماني باتريك زوسكيند انتاج معهد غوتة في دمشق.
- حصلت على جائزة تانيت الامتياز للمخرج الواعد في أيام قرطاج المسرحية 1997 عن مونودراما (اسماعيل هاملت).
- ساهمت في تأسيس فرقة مسرحية مستقلة في دمشق. وأخرجت وانتجت للفرقة، مسرحية (اسماعيل هاملت)، (عيشة)، (ذاكرة الرماد).



أطفأ سيجارته فجأة في الطبق وانتفض من مكانه غاضبًا وخرج كالزوبعة من غرفة السفرة. تناول معطفه من على الـمِشْجَبِ وخرج من المنزل صافعًا الباب وراءه بقوة.
كانت دموع والدتها قد بدأت تسيل على خديها عندما نهضت "ديما" من مكانها وركضت إلى معطفها، لبسته ولحقت بوالدها."بابا استناني" نادت عليه من أعلى السلم.
أخذا يسيران بصمت تحت شمسيته السوداء الكبيرة والمطرة على أشدها ويدها تسترخي بأمان في يده الدافئة داخل جيب معطفه الرمادي الكبير. كم تمنت لو أن جيبه يتسع لها كلها.
بعد قليل كسرت الصمت وسألته بصوت قلق :
"بابا بدك تتركنا وترجع على الشام ؟"
"كلنا رح نرجع مع بعض"
"وإذا ماما ما رضيت ؟" سؤال كان يتجنب التفكير فيه...

تصميم الغلاف: غادة خليفة




9 789774 903656

